
الكتاب الفضي
نادي القصة
أرض الخطايا
أمين يوسف غراب



سلسلة شهرية تصدر عن نادى القصة

في الخامس من كل شهر

رئيس التحرير : يوسف السباعي

مدير التحرير : حسن امام

العدد ٨

يونيه ١٩٥٨ ــ ذو القعدة ١٣٧٧ ــ حزيران ١٩٥٨

التحرير والادارة : ٥٣ شارع الجمهورية ــ القاهرة

ص · ب ٣٢٨ ــ القاهرة ت ٤٨٦٦٩

الاشتراكات : ١٠٠ قرش عن سنة (١٢ عددا) فى داخل اقليم مصر والسودان وما يعادل ١٣٠ قرشا عن سنة فى الأقطار العربية ·

التوزيع : فى داخل اقليم مصر ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ٥٣ شارع الجمهورية ــ القاهرة وفى الأقطار العربية المكتب التجارى ببيروت ومكتبة المثنى (قاسم الرجب) ببغداد ·

الكتاب الفضي



سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

الناشر : الشركة العربية للطباعة والنشر

أمين يوسف غراب

أرض الخطايا

وقصص أخرى



أرض الخطايا

لم يكن الشيخ مسعود من أولئك الذين يعيشون فى الدنيا جزافا ، او حسبما اتفق ، لأنه قدر لهم أن يعيشوا فيها فحسب ، ولكنه كان من القلائل الذين يعرفون ــ عن علم ــ ما هى الدنيا ، ولماذا جاءوا اليها ، وماذا يعملون فيها ، مع انه لم يختلف الى مدرسة او جامعة، ولم يتعلم فى غير « كتاب » القرية ، ولم يتعلم غير ــ فك الخط ــ ، بل ولم يغادر القرية التى نشأ فيها طيلة حياته ، غير مرة واحدة ذهب فيها الى القاهرة ، وكانت هذه المرة يوم أن أزمع الشيخ الحج الى بيت الله الحرام .

ولكنه كان مؤمنا يعرف الله تبارك وتعالى . ومن هذا عرف الحياة معرفة صادقة .

عرف أن الحياة الدنيا ما هى الا متاع الغرور ، وأن الرجل الذى يرضى عنه الله تعالى ، انما هو الرجل الذى لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ولا تشغله دنياه عن آخرته ، ولا يهتدى الا بنور الحق الذى هو « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » .

وقد هدى الله الشيخ مسعود وجنبه مآثم الدنيا وشرورها ، وجعله فى القرية رجلها المهيب الرهيب ، فليس من كلمة تعلو كلمته ، وليس من نازلة تنزل بأحد الا وهو رافعها باذن الله ، وكثيرا ما كان فضيلة القاضى الشرعى الذى يحضر الى القرية ثلاثة أيام فى الأسبوع وهى أيام الجلسات ويبيت عند الشيخ فى داره ، لا يأخذ برأى غير رأيه ، ولا بحكمة غير حكمته ، وكثيرا ما كانت تلك الأيام الثلاثة تتبع

لياليها أيضا لأطيب الأسمار فى « مندرة » الشيخ ، ففضيلة القاضى الشرعى والشيخ مسعود ومن حولهما شيوخ القرية وشبانها يتناجون فى الدين ، ويخوضون فى التشريع السـماوى ، وفى وقائع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ، وكيف أن الله اختارهم من دون البشر ليحملوا راية الحق والنور للدنيا . وكثيرا ما كانت تقضى فى هذه الجلسات حاجات الناس ، وتحل مشاكل القرية وينفض ما يقوم بين أهلها من نزاع دون الرجوع الى حاكم أو محكمة ، حتى أن فضيلة القاضى قال ذات مرة عن هذه الجلسات انها فى القرى كالمصحف فى بيت المسلمين ، تلك تمنع الشر ، وهذا يجلب الخير .

وكان الشيخ مسعود رغم هذا الذى يتمتع به فى القرية من هيبة ورهبة وجاه عريض ، رقيق الحال ، ليس على شىء كثير أو قليل من ثراء أو نعمة ، فلولا الثلاثة أفدنة التى تملكها زوجه ويفلحها الشيخ بيده ، لما وجد ثمن الرغيف الذى يتبلغ به ، وكان من فضل الله عليه أن وهبه زوجة صالحة ، تماثله طيبة وطهرا ونقاء ضمير ، لا يذكر أنها اختلفت معه يوما على شىء تافه أو غير تافه ، من متاع هذه الدنيا الزائلة ، حتى أنها لما تزوجته ؛ ومكثت معه زمنا طويلا ولم تنجب ، طلبت اليه أن يتزوج بغيرها ، وأن يسرحها ان أراد ، ولكن الشيخ لم يفكر فى هذا ، ولم يجعله أبدا موضع اهتمامه فى يوم من الأيام ، وكان اذا ما فاتحه أحد فى هذا الأمر . قال راضيا : « ان الله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » واذا ما فاتحته زوجه فى لحظة من لحظات الاسترسال بين الزوجين قال مبتسما : « لئن حرمنى الله نعمة الخلف فقد عوضنى عنها نعمة النعم وهى صفية ، فوالله ياخديجة ــ يعنى زوجه ــ ما تفتح قلبى قط مثل ما يتفتح لهذه الفتاة اليتيمة » .

وصفية هذه فتاة من أهل القرية مات أبوها قبل أن تولد بأشهر وماتت أمها بعد أن ولدت بأيام . فجاءت الى هذه الدنيا آية من آيات اليتم ، وصفة من صفات الجوع والفقر فلولا احدى المراضع التى

لحقت بها ، وقدمت لها ثديها ابتغاء مرضاة الله ، لماتت هي الأخرى. وكانت هذه التي أرضعتها تمت بصلة القرابة البعيدة الى الشيخ فأخبرته خبر هذه الفتاة اليتيمة وقدمتها اليه قطعة من لحم ، في ثوب خلق مهلهل ينبثق عن عورات جسم الوليد . فتأذى الشيخ ، وبسمل وحوقل ، واستشار زوجه ، واستخار ربه ، الذي هداه الى أن يكفلها ويتبناها ، ويكون هو أباها الذي مات ، وزوجه أمها التي افتقدتها .

وربيت الطفلة اليتيمة في كنف الشيخ ، وكانت كنفس المؤمن تقية نقية بيضاء . ذات جمال وذكاء ، لم يعرف له مثيل في القرية ، ولم يكن هذا بغريب على أمثال صفية . ذلك لأن القدر لن يقطع أبدا ما أمر الله به أن يوصل ، وان لم تكن صفية ذات حسن وبهاء وذكاء فمن أين يجد اليتيم السلوى . ومن أين تجد صفية عطف الناس ، وكان الشيخ مسعود هو أول من فطن الى ذكاء الفتاة . فلم يشأ أن يتركه يدفن ويعلوه الصدأ بين أزقة القرية ودروبها . فبعث بها الى الكتاب ، ثم الى المدرسة الأولية ، وظلت بها حينا . ولما كبرت ونضجت أنوثتها وعبق أريج جمالها ، وغدت ريحانته فتنة للناظرين ، تصبو اليها العيون ، وتتطلع اليها الأفئدة . تشاور الشيخ مع زوجه ، وتشاورت زوجه معه ، ثم انتهيا الى ما يجب أن ينتهيا اليه ، وهو أن تمنع صفية عن المدرسة ، وتحتجب في الدار حتى يقضي الله في أمرها بما يشاء ، وعساه أن يهيىء لها من أمرها رشدا .

ومرت بعد ذلك الأيام ، مرت رتيبة هادئة . كما تمر دائما على الشيخ وأمثاله ، الى أن جاء يوم كان على الكل مشئوما . فقد مرضت صفية فجأة ، وشحب لونها وعلته صفرة قاتمة كادت تشوهه وتأتي على معالم حسنه وبهائه . ومكثت العلة تناضل الفتاة أياما حتى هدتها ، وأقعدتها آخر الأمر في الدار ترزح تحت أغلال ظلمها وظلمتها. وكان أشد الناس حزنا وكربا وابتئاسا بمرض صفية هو الشيخ . حتى أنه لشدة حزنه فكر في الخروج على تقاليد القرية ، فيأتي لها

بطبيب فقد كان من تقاليد أهل قريتنا فى ذلك الحين ان تموت المرأة ولا تراها غير عين زوجها . وفكر فى ذلك جيدا واستشار فيه زوجه، فأشارت بالتريث . لعل الله مزيح هذا الكرب ، ومبدد هذا الغم من لحظة الى اخرى ، وظل الشيخ يترقب هذه اللحظة . مبتهلا حينا وضارعا حينا آخر ، الى أن جاءته فى آخر الأمر . ولكن بأسوأ ما تجيء به اللحظات من كرب عظيم على الناس . فقد ذهب الشيخ الى الدار ذات ليلة بعد صلاة العشاء ، فاذا بزوجــه تستقبله هلعة جزعة ، مظلمة النفس متلبدة الحس ، تلطم خديها فى عنف ، وتهيل التراب على رأسها المضطرب المكتئب المكدود الذى دهمه الخطب ، وأسرت اليه النبأ القاتل :

ــ أن صفية لحبلى ياشيخ مسعود .

ــ لا تقولى . .

ــ بل أقول !

ــ كيف ؟

ــ لقد جاءها المخاض .

ــ من قال ذلك ؟

ــ الحاجة زبيدة !

ــ وافضيحتاه !

لفظها الرجل وكأنه يلفظ آخر انفاسه ، ثم هوى بجسده كله حاملا رأسه المتعب على صدره الجريح المضطرب ، ومن ثم أغمض عينيه وغاب عن الدنيا ، أما الزوجة الهلعة فقد ارتدت بسرعة الى مصدر الأنين المنبعث من ركن مظلم من أركان تلك الغرفة النائية الممتلئة بمخلفات الحقل من تبن وحطب وأعشاب فألفت الفتاة تئن وتتلوى . تنفرد حينا كالخط المستقيم وتنقبض فجأة كالأفعى الثائرة . وكلما نهش الألم أحشاءها ، عضت على أنيابها ، وزمت على شفتيها ، ودفنت وجهها فى التراب حتى لا يسمع لها عويل او صراخ . وفجأة غمرها الموج . وكان عنيفا قاسيا لا يرحم . فصرخت صرخة



« وربيت صفية فى كنف الشيخ ، وكانت كنفس المؤمن تقية نقية بيضاء ، ذات جمـــال وذكاء ، لم يعرف له مثيل فى القرية »

مدوية اعقبتها بانة حبيسة مختنقة ، أعلن على أثرها للملأ أن وليدا جاء الى الدنيا ، ينكره أبوه ، وتستنكره أمه .

ومرت بعد ذلك الليالى . وكانت على نفس الشيخ أشد ما تكون الليالى سوادا وظلمة على نفوس المفجوعين . وزاد من سوادها وقتامتها تذرع « المرأة » بالصمت . والصمت الذى هو أشد هولا وجزعا ورعبا من وجهها الأصفر الشاحب الذى انعقد على جبينه لواء الاثم والعار ، ان صح أن يكون للاثم والعار لواء يعقد على هامات الناس . وبدأت العيون فى القرية ترى هذا اللواء الأسود . وتتحدث به ، جادة وغير جادة ، هازلة وغير هازلة ، ولكنها تتحدث على أى حال . فريق ينكره ، وفريق يستنكره . وفريق آخر يرى الشيخ المكروب فى الطريق مطأطىء الهامة منكس الرأس ، فيقول والسخرية ملء ابتساماته :

ـ أن العصمة لله وحده .

وبدأ الشيخ يحس هذا الذى يقال عنه ، كما بدأ يعرف عن يقين أن العيون لها سهام أشد فتكا من الرصاص والنار . فتشاور وزوجه فى هذه النازلة التى الت بهما . وأشارت الزوجة بطرد المرأة الآثمة وابنها وبذلك تمحى الجريمة محوا من الدار . وقال الشيخ الطيب القلب :

ـ وأين البيت الذى تفتح أبوابه للبؤساء من الناس ؟ .

ـ من الخير أن تغلق الأبواب فى وجوه أمثال صفية . .

ـ ولكن صفية ياخديجة لم تخلق هذا البؤس وانما خلقت له ، ان الذى أعد الرصاصة للبندقية ، غير الذى أطلقها .

وساء الزوجة أن يصر الشيخ على بقاء صفية فى الدار ، بعد كل هذا الذى حدث وساء الشيخ أن لا يكون عونا لامرأة بائسة ليس لها فى الدنيا من سند أو عضد .

واحتدم الخلاف بين الزوجين ومن ثم تطور الى ما لم يكن يقدر

الشيخ ، فقد ركبت الزوجة رأسها ، واتهمت الشيخ علانية ، بأنه صانع هذا الجرم ، وباعث هذا الشر والا لما أمسك به فى داره ، وعز على الشيخ أن ترميه زوجه بهذا الافك ، فأغلظ لها فى القول ، فتركت الدار مغضبة حانقة ، ترمى زوجها الشيخ بكل فاحشة ونقيصة .

وشاعت الشائعات فى القرية بأن الشيخ قد ارتكب أمرا ادا ، ووجدت هذه الشائعات لها مرتعا خصبا فى القرية ، ولا سيما بعد أن غضبت الزوجة وظلت صفية فى الدار . وما هى الا عشية أو ضحاها حتى انفض الناس من حوله ، وفجأة ألفى الشيخ نفسه منبوذا فى القرية ، يسير بين أزقتها ودروبها كما يسير الكلب الأجرب فى الطرقات فتطارده الناس وترميه بالحجارة . فلم يسع الشيخ الا أن يرفع طرفه الكليل الى السماء ويتمتم بكلمات لا تأخذ منها حتى أذناه ، ومن ثم يواصل المسير فى طريقه الحزين .

وآلم الشيخ أكثر ما آلمه ، أنه ذهب ذات مساء ليصلى العشاء فى المسجد كالعهد به ، فما كان من المصلين الا أنهم انفضوا من حوله ، وتركوا المسجد لأن كلبا نجسا أم بيتا من بيوت الله . ولم يكن مبعث حزنه وقلقه وابتئاسه هو هذا الذى حدث فى المسجد بل لأنه لم يجد فى القرية على سعتها من يواسيه ويقف بجواره ، أو حتى ذلك الذى يسدى اليه العطف بالعين ان لم يكن باللسان ، وفضيلة القاضى الشرعى هو الآخر انفصل عنه ورمى شرف الشيخ بحجر مع من رمى .

كل ذلك وصفية لم تعرف من أمر نفسها ولا من أمر الشيخ شيئا ، وكل الذى كانت تلم به من دنياها ، هو أن باب غرفتها المظلمة كان يفتح عليها مرة اذا جاء الصبح ، وأخرى اذا أقبل الليل ، ويدلف منه الشيخ مكدودا مهزولا ، يتوكأ على عصاه ، ويحمل لها على يده المتعبة المرتعشة ما تتبلغ به ، ثم يلقيه أمامها القاء كما تلقى شيئا الى كلب من الكلاب ، فلا يسعها الا أن تشكره فى صمت على هذا الصنيع ، ثم ينصرف الشيخ ، وتبقى وحدها فى الظلام تبلل كسر الخبز الجافة ، بأنقى الدموع وأحر العبرات .

وبدا دبيب الغيرة يدب فى قلب الزوجة الغاضبة ، ونار الحقد تعتمل فى صدرها وتقض مضجعها ، فالتجأت الى القضاء طالبة التفرقة بحجة أن زوجها ارتكب جريمة الزنا مع فتاة أنجب منها ولدا ، وما زالت تعيش معه فى الدار ، ويعاشرها معاشرة الأزواج ، وسرى الخبر المشئوم فى القرية مسرى النسيم العليل فى الخمائل الفيحاء فأيقظ ورودها وبث الروح فى هوامها وحشراتها ، وجعلها تتطلع الى مصدر الضوء ومبعث الدفء ، ذلك لأن أنباء الشر كثيرا ما تأتى بالخير على بعض النفوس .

وما أن جاء يوم المحاكمة حتى كان كل من فى القرية ، يتزاحم بالأيدى والمناكب ليفسح مكانا لعينه تطل منه على الشيخ الآثم ، الذى سولت له نفسه أن يفسد فى الأرض .

ووقف الشيخ فى المحكمة أمام فضيلة القاضى ، وبجواره المرأة التى شغفته حبا . . . أما الشيخ فلم يصنع أكثر من أن فتح عينيه المتعبتين المغلقتين وأنكر التهمة ، ثم رجع الى الغمض والصمت ، يتذرع بهما من شرور الناس وآثام الدنيا . . أما المرأة المجرمة فلم تزد على أن رفعت رأسها الى فضيلة القاضى ، وألقت بكل ما تملك من نظرات ذليلة هزيلة مستضعفة على وجهه المشرق البسام وتمتمت بما يفيد براءة الشيخ . . أما محامى الزوجـــة فقد كان مدرها خلابا ، أثبت بقاطع الحجج ، وساطع البراهين أن الانسانية بريئة من هذا الشيخ الذى يعبث بها ويفسد فيها ويسفك الدمـاء . وأما المحكمة فقد حكمته بالتفرقة ، مستندة على ما جاء فى عريضـة الدعوى من قرائن دعمها الاتهام وفندها بالبراهين والحجج .

وظن الشيخ أن أحداث الزمن ستقف به عند هذا الحد ، ولكن الزوجة التى تقطع الغيرة نياط قلبها تقطيعا ، وتفتك بكيانها فتكا ذريعا ، أبت الا أن تشفى غليلها وعلى الوضع الذى يرضيها ويرضى غريزتها كامرأة مغلوب على أنوثتها ، مطعون فى جمالها ، لذلك ما ان مضت أشهر على الحكم بالتفرقة حتى تقدمت الى المحكمة مرة أخرى

تطالب بالنفقة المتجمدة ، ومؤخر الصداق ، وأجر المسكن والملبس خلال المدة التى قضتها على ذمة الشيخ ، بعد الهجر وقبل الطلاق ، ومثل الشيخ أمام فضيلة القاضي مرة ثانية وسمع الحكم عليه بطلبات الزوجة المطلقة ، وكان ما اشتهت المرأة ، فقد عجز الشيخ عن السداد وزج به فى السجن ليقضى فى غياهبه ثلاثة أشهر كاملة ، بعد أن قضى ستين عاما فى رحاب هذه الدنيا ينعم بما أفاء الله عليه من خير عميم .

ولم يعرف على وجه التحديد كيف قضت صفية هذه الأشهر الثلاثة ، ولكن من المقطوع به هو أن أحدا فى القرية لم ير صفية طيلة الأيام والليالى التى أنفقها الشيخ فى السجن ، بيد أنها عادت فجأة الى الظهور ، وكان ذلك يوم أن خرج الشيخ من السجن وحيداً كما دخله وحيداً ، فألفى على بابه شبح امرأة معروقة مقرورة تعلو وجهها صفرة كصفرة الأموات . تحمل على صدرها المتخشب المرتعش طفلا أكل الصديد غينيه ، وغمر البؤس وجهه . ونهش الجوع أحشاءه فتكالبت شفتاه على ثدى صدىء مترهل ، كان على الصدر المريض الخافق أشبه بالوردة الجافة المتدلية على غصن مائل فوق شجرة حزينة . ورفع الشيخ المتعب طرفه الكليل الى شبح المرأة وهيكل الطفل ، ثم تطلع الى السماء وتمتم بكلمات لم تبلغ أذنيه ثم واصل سيره بخطى وئيدة ، ومن خلفه سارت المرأة تحمل ظلم الانسانية وتجر بؤس الدنيا فى أذيالها .

وكان من دواعى اغتباط الشيخ أنه أشرف على القرية مع الليل لأنه لا يريد أن تقع عليه عين ، فجسده المنهوك الخائر ، لم يبق فيه موضع لعين تخترمه ، أو نظرة تخترقه . غير أنه لما بلغها ألفى جماعة من الصبية يلعبون فى أحد الأجران وكانوا على علم بقصة الشيخ ، وما أن عرفوه حتى تندروا به ، وبالمرأة الذليلة التى تسير خلفه ، وتقدم أحد الصبية من الشيخ وقال له كلمة نابية ، ودفعت المرأة عن شيخها هذه السوءة بكلمة مختنقة خرجت ميتة من بين شفتيها المقرورتين فما كان من الصبى الغر الا أن قذفها بحجر اخطأها فقذفها

بآخر اصاب الطفل وأيقظه من نعاسه يصرخ ويتوجع ، وآذت الشيخ صرخات الطفل الوليد فرفع يده الواهية ولوح بعصاه فى الهواء ، ولكنه لم يكد يفعل حتى سقطت العصا من يده ، لأن حجرا طائشا اخطأ المرأة والصبى ، وشج جبين الشيخ ، ورأت الصبية دم الشيخ يسيل على الأرض ، فانفضوا من حوله فرحين مهللين ، ومد الشيخ يده الواهية الى جبينه الجريح ثم تطلع الى الدماء التى غمرتها ، ومن ثم نظر الى السماء وتمتم بنفس الكلمات التى لم تسمعها اذناه ، وواصل السير وبنفس الخطى الوئيدة الشبيهة بخطى الملائكة عندما تتنقل فى رياض السماء .

ولكن الشيخ ما لبث أن ذهب الى الدار حتى هزلت شيخوخته وتراخت قواه ، فاستلقى على الأرض مثخن الجراح مقهور القوى ، نائما كاليقظان ويقظان كالنائم . تهمهم شفتاه حينا ، وتعبث يداه أحيانا بطرف ثوبه الملوث بالدماء ، ويئن أنينا متصلا مرة ومتقطعا مرات ، وفجأة أحس الشيخ بأن شيئا ثقيلا يلم به ويلح عليه الحاحا، ويمس قلبه فى رفق حينا . وحينا آخر فى قسوة وعنف ، وظل به يحاوره ويداوره طيلة الليل ، وضاق الشيخ ذرعا بهذا الطائف الماهر الماكر الخبيث ، الذى ألم به وأثقل عليه ، ففتح عينيه ليراه واذا به فجأة ينتفض فى مكانه مذعورا كمن لدغته عقرب ، واذا به أيضا يفزع الى السماء خائفا وجلا ، يتصبب العرق من جبينه المجروح ويسألها فى خوف أن تجنبه شر هذا الشيطان الذى ألم به فى هذه الليلة النكراء، وكأن السماء قد استجابت الى دعاء الشيخ فأحس بشىء كأنه النور يتسرب الى قلبه مع شعاع الفجر الذى تسلل الى الدار فى الغلس ، فآمنه من خوف ، وملأ قلبه هدوءا وأمنا وطمأنينة . . ومد الشيخ يده وتناول المصحف الكريم من على المسند الخشبى الذى أعده له فى غرفته ، واذا به يجد بجوار الكتاب الكريم ، رسالة طويت طيا منتظما رتيبا واذا بها من صفية كتبتها له فى أول الليل ، لأنها فى آخره ستكون قد أراحت الشيخ من احزانه وانها فى الرسالة تشكره على ما اسداه

اليها من خير ، واحتمله فى سبيلها من أذى ، ثم تقـول له ضمن ما قالت :

« ولأنها لا تملك غير حياتها فقد تصرفت فيها على الوجه الذى يرضيها ، أما ذلك الطفل الذى قدر له أن يماثل أمه فى مولده ، وفى حياته ، فجاء الى هذه الدنيا بائسا منكودا ، كما جاءت اليها أمه بائسة منكودة ، فليس من حقها أن تمسه بسوء ولا بخير ، وليس أيضا من حق الشيخ أن يمسه بسوء ولا بخير وانما هذا هو من حق رجل واحد ، هو الذى جاء به الى هذه الدنيا وهو وحده الذى يملك له النفع والضر ، ويملك أيضا للناس النفع والضر ، لأنه « قاض » من القضاة الذين قدر لهم، أن يحكموا بين الناس ، ويتحكموا فى مصائر الخلق » .

شىء واحد هو الذى أخرج الشيخ عن ذهوله . وأعاده الى رشده ، ذلك أنه سمع طارقا يطرق الباب فى عنف ، وينادى قائلا :

ــ لقد ماتت صفية بأن ألقت بنفسها فى أليم .

فلم يسع الشيخ الا أن يرفع طرفه الكليل الى السماء ويتمتم بكلمات سمعتها هذه المرة أذناه ... فقد كانت ... انا لله وانا اليه راجعون .

الدم الأبيض

يا لأولئك الرجال الذين يحملون فى رؤوسهم عقول الأطفال . . .

تلظت حروف هذه الكلمات فى شفتيه ، تلظى نار تطايرت حمما من ذؤابات جذوة مشتعلة ، وتراخت ذراعه ووهنت يده فسقط عنها فى هداة الليل ذلك « المظروف » الذى عثر عليه مصادفة فى مخدع زوجه ، يضم خمس رسائل من رسائل الغرام الآثم الخبيث . على انه سقط بجسده سقوط الرسائل وارتمى على المقعد خائر القوى ميت الحس والشعور ، ولولا بعض الزفرات التى كانت تنفلت خلسة من بين شفتيه . وبعض النظرات التى كانت تصدر عن عينيه بين الحين والحين ، فتلتمع وسط سكون الليل الشامل ، لظننته جثة سقطت فى لجة الليل من مخلب طائر كاسر فاستقرت على المقعد الذى انطرح عليه .

ومرت لحظات لا يدرى أطالت هى أم قصرت ، فهو لا يعى الا انه فتح عينيه فاذا بالخوف يعاوده ، والذعر والاضطراب يكتنفان كل جارحة فيه . فقد رأى المظروف لا يزال ملقى أمامه حيث هو من الأرض . فأيقن ان الأمر حقيقة ، وانه لم يكن ــ كما كان يتمنى ــ عبث حلم سخيف فى ليلة مملة من ليالى الشتاء ... ونظر الى المظروف طويلا ، وتأمله مليا بعينيه دون أن يجرؤ على لمسه بيديه . ثم تمتم والدموع تنساب بغزارة على وجهه الأصفر الذى شحب فجاة:

ــ اكاد اجن .

ــ ولكنك لم تكن أول زوج تخونه النساء . . !

وانتفض مذعورا وتلفت خجلا . . فقد حسب ان احدا معه فى الغرفة فيقف على فضيحته ، ويرى دمه المهراق وعرضــه المباح

وشرفه الذى مزق تمزيقا . ولما لم يجد احدا غيره فيها انفرجت اساريره بسخرية مريرة وتمتمت شفتاه :

ـ ولكنى لم أكن ككل زوج ، لقد كنت نعم الزوج ... ان حبى لها وسعادتى بها كانا مضرب الأمثال ..

وهم بأن يقول شيئا آخر ، ولكن الدموع غلبته فشغل بها حينا، ثم عاد الى الهذيان الموجع الأليم . وفى غير قصد الفى نفسه يعيش مع الماضى ، الماضى القريب بسعادته ، والبعيد بشقائه ومرارته . فلو انه أتيح لانسان أن يحصى لحظات السعادة التى استطاع أن يختلسها من العمر ، ويسرقها من الزمن ويحسبها حساب الأيام والسنين . لما كانت أكثر من تسعة الأشهر التى حملت فيها زوجه ، وقد جاءت هذه الشهور بعد ست سنوات سود ، انفق خلالها كل ما كان يملك من مال ، ويدخر من جهد . لعل الله يشفى زوجه من عقمها ، ويريحها من عناء تلك الدموع التى تنفقها فى غير حساب ، وعساه أن يجعل ريح الشمال تأتى يمينا ، وترد لامرأة من النساء اعتبارها كزوجة ..

ان غاية ما كان يطمح اليه ويتمناه على دنياه ، هو أن يصبح أبا ، وتصبح زوجه العزيزة أما . وتصبح هذه الدار هانئة تشيع فيها ابتسامات طفل ، ويعلو فيها صراخ وليد . وقد حقق الله هذه الآمال، حققها فجأة وعلى غير انتظار . لذلك كاد قلب الزوجة يسبق شفتيها ليزف اليه النبأ السار . اما هو فمن فرط السعادة التى اطافت به ، والفرحة التى غمرته ، لم يفعل أكثر من أن نظر اليها مخضل الطرف، وشكر الله الذى بدل بالعسر يسرا ، وبالسعير فردوسا ، وبجحيم الأرض نعيم السماء وبهجتها ، وختم الشكر بقبلة حارة طبعها على شفتيها . ثم انفلت من بين ذراعيها ، وخرج من الدار مسرعا يعدو كالطفل ، ويزف النبأ للأهل والأصدقاء ، ولمن يقابله من غير الأهل والأصدقاء . وهكذا مرت اشهر الحمل الأولى خفيفة رشيقة حلوة كأحلام العذارى . ولما أحست الزوجة بآلام الوضع أبى عليها أن تضع كما تضع عامة النساء ، فلا بد من أن تنقل الى ارقى المستشفيات

ولا بد من أن يؤتى لها بأمهر الأطباء .. ولما جاءها المخاض اختلط عليه الأمر ، فقد امتزج خوفه عليها بفرحته بها . ولكن ذلك لم يدم أكثر من ساعات جاء على أثرها النبأ الذى ملأ الدنيا أنسا وبهجة . فقد وضعت الزوجة العزيزة طفلا كان على أبويه أعز الأطفال الذين جاءوا الى الدنيا مذ خلق الله الكون وجعل الأبناء عروته الوثقى .

وكان لا بد لهذا الطفل العزيز من أن ينعم ، وكان لا بد لهذا النعيم من حاجات ، يطلب بعضها المستشفى ، وبعضها طلبته أمه ، وبعضها الآخر أخفاه بينه وبين نفسه ، وقد أجيبت جميعها ولم يبق منها غير هذا السرير الصغير الذى جاء به الليلة الى الدار لينام فيه الطفل عندما يعود غدا الى الدار مع أمه .

وقضى الليل وحده كالحائر وسط المخدع ، انه ان وضع سرير الطفل عن يمين هذا السرير الكبير ، فانه يخشى على ولده من الهواء حين ينسل خلسة من النافذة فى الليل . وان هو وضعه عن يساره فسيواجه الباب حين يفتح أو يغلق . وان هو نقل السرير الكبير من موضعه الى ذلك المكان الخالى من الغرفة فيتعذر فتح مصراعى الدولاب الكبير .

وفكر وأجهده التفكير . وتمنى لو أن الخادم بقيت فى الدار هذه الليلة ولم تطردها زوجه قبل أن تذهب الى المستشفى بأيام . اذن لأشارت عليه الليلة بالمكان الملائم .

وأخيرا اهتدى الى حل موفق ، هو أن ينقل هذا الدولاب من مكانه . وبذلك يجد المكان الملائم لهذه الأرجوحة الصغيرة التى تضم أمل الدنيا وفرحتها .

ولما انتهى من ذلك كله فتح عينيه ليرى المكان الأمين الذى أعده لفلذة كبده ، ولكن سرعان ما ارتدت نظراته وجلة ترقب ، فقد وقعت اول ما وقعت على المظروف الذى كان لا يزال ملقى أمامه فى الأرض والذى عثر عليه مصادفة وهو ينقل الدولاب .

ولمعت عيناه فى سكون الليل ، واربدت سحنته واكفهرت حتى



« حقا انني لأبله .. حقا انني لمجنون ..
لقد كان يجب عليّ أن أفطن الى ذلك من زمن بعيد »

بدت معتمة ممعنة فى السـواد كغلائل الليـل البهيم ، ولولا بعض الزفرات الحارة التى كان يصعدها بين حين وآخر وتلفظها شفتاه لفظا من شدة التوَجع المكبوت الذى يعانيه لقضى عليه ، ومكث كذلك لحظات مد خلالها ذراعا واهية محطمة كأحلامه التى انهارت وتناول المظروف عن الأرض وعاود تلاوة بعض ما فيه من رسائلَ . .

انها تطفح بالجريمة والاثم . كما يطفح الاناء القذر بالماء الملوث . انها من حيوان آدمى يصف سعادته بالولوغ فى الدم ، ويتحدث عن فرحته بأكل لحوم البشر ، كمـا تتحدث الخنـازير عن فرحتها بالمستنقعات التى تطفو عليها القاذورات والجيف . .

وأدنى احدى الرسائلَ من عينيه ، وتأملها مليا لعله يعرف خط صاحبها . ولكنه لم يكن يعرف فى حياته مثل هذا الغبى الذى يجهل من قواعد الاملاء حتى أبسطها . . وقرأ رسالة أخرى ، انه يصف القبلة من شفتيها بأنها كالأكل من التفاحة . . . وارتسمت أمام عينيه على صفحة الرسالة شفاه زوجه فاذا بها حقا طرية ندية حلوة . . ولكن ترى هل هى كالتفاحة حقا . . ! وعاود النظر الى الرسالة مرة أخرى واذا بالعشيق يصف خدود معشوقته لاشفتيها . واذا به أيضا يرى وجه زوجه ما يزال مرتسما أمام عينيه على الرسالة . واذا بها تطرب لهذا الوصف الجميل ، واذا بخدودها حقا من الطرب والخفر تبدو تماما كالتفاحة . . يا للنساء ! االى هذا الحـد يجرح أكفهن الحرير ، ويضمد جراحهن الشوك . . ؟ وهل كنت من الغباء والبلاهة الى هذا الحد . . ؟ وانفلتت من بين شفتيه زفرة ملتهبة وتمتم . . حقا اننى لأبله . . حقا اننى لمجنون . . لقد كان يجب على أن افطن الى ذلك كله من زمن بعيد . . من تلقاء نفسى . . من الزينة والبهرجة التى كانت تتبدى بها كل صباح ومسـاء . . من كثرة تغيبها عن الدار . . ثم من فرحتها التى لاحد لها بالجنين الذى كانت تحمله بين أحشائها . . ولكن هذا الجنين . . هذا الطفل . . أهو . . ؟ هو ماذا . . ؟

وفغر فاه ولمعت عيناه وجحظت جحوظا وكأنها تقذف بالشرر.
كما تصلبت شعرات رأسه حتى غدت فوق جبهته كالحراب المسددة.
وفجأة انفلت زمام صوابه فلطم جبهته المحمومة لطمة موجعة أعقبتها أنات متقطعة وكلمات اختلطت بصوت جسده الخائر وهو يسقط الى الأرض . لذلك لم تستطع أذناه أن تميزا من كلماته غير بعض عبارات الغفلة والجنون التي جاشت بها نفسه .

وكأن اللطمة كانت قوية فلم تحتملها جبهته المحترقة فقد أذهلته عن نفسه وجعلته يغيب عن دنياه حينا لا يدرى أقصر حتى جاء في لحظات ، أم طال حتى جاء في ساعات . كان لايدرى الا أنه فتح عينيه فلم ير غير ضوء النهار يداعبهما من خلال سجف النافذة ، فخجل من نفسه عندما ألفى جسده ملقى الى الأرض . وقام متخاذلا فارتدى ثيابه وهم بمغادرة الغرفة . بيد أنه حانت منه التفاتة عابرة الى المرآة فرأى وجهه مصفرا شاحبا كوجوه الموتى . فلم يحزن وانما تمتمت شفتاه وهو يسترد من المرآة نظراته المكتئبة ويغادر الغرفة :

ـ سيزول كل هذا . كل ما هنالك أني أعيش أبله عدة أيام أخر .

ثم وضع المظروف الآثم في مكانه الأمين الذي عثر عليه فيه ، وهو قرارة الدولاب وغادر الدار وعند غرفة زوجه في المستشفى قابلته الممرضة فقالت له في ابتسامة مشرقة لاح تألقها على شفتيها الجميلتين :

ـ يسرى باشا يهديك تحية الصباح .

فنظر اليها دهشا وقال :

ـ من يسرى باشا ؟

فقالت ضاحكة :

ـ يالهؤلاء الآباء الذين لا يذكرون أسماء الأبناء !!

ـ قالت ذلك ثم طارت أمامه كالحمامة البيضاء ، فشيعها بعينيه المحمرتين حتى توارت ، ثم دلف على مهل الى قلب الغرفة ، فألفى

زوجه تداعب وليدها وكأنها تداعب الدنيا فى حجرها . فحياها كعادته ، ولكنه نسى أن يداعب الطفل ويقبله ، وفطنت هى الى ذلك فنظرت اليه وهمت بأن تقول له شيئا . ولكن الشحوب الذى طالعها مرتسما على وجهه حتى كاد يغير معالمه ، غير مجرى حديثها فقالت:

ـ لكأنى بك لم تنم منذ يومين ؟ .

ولم يدر من أين أتى بتلك الابتسامة العريضة التى طبعها على شفتيه حين قال مداعبا وهو يتلظى :

ـ بل منذ جاء هذا الطفل الجميل وشاركنى فى حبك .

فقالت طروبة وقد تفتح قلبها ليحتوى الوليد الذى انحنت عليه بصـــدرها :

ـ أتغار منه .. ؟

وأفزعته هذه الكلمة ، واحس لفظ الغيرة تنصب حروفه فى اذنيه كالنار ، حتى لتكاد تحرقه ، لذلك غير مجرى الحديث قائلا وبسرعة لم تفطن اليها زوجه :

ـ لقد أحضرت له سريرا جميلا دقيق الصنع ، سيعجبك كثيرا .

ـ أين وضعته . ؟

ـ أقمته فى الغرفة مكان الدولاب الذى نقلته يمينا .

قال ذلك ثم ألقى بكل نظراته على وجهها ، وارهف السمع الى انفاسها ليرى وقع نبأ نقل الدولاب عليها . بيد أنه وجدها أثبت مما كان يظن ، فلم يسعه الا أن يرميها بنظرة أذهله كيف أنها لم تحرقها .

وانقضى اليوم بسلام ، وعادت الأم بولدها الى الدار ناعمة هانئة، البشر فى عينيها ، والفرحة كأمواج النسيم تداعب عطفها ، وسعادة الدنيا تنتشر بسطا مختلفة ألوانها امام الوليد السعيد الذى دخل الدار ليعطرها بأريج ابتساماته .

أما هو فلم يدر من أمر يومه شيئا ، ولم يدر من أمر دنياه شيئا، وكل الذى الم به من أمر نفسه أنه سلخ من عمر الليل وقتا طويلا قضاه فى الطرقات يسير على غير هدى ، حتى انتهى الليل وهزل ،

وهزل هو أيضا وخارت قواه ، فذهب الى داره يمشي رويدا رويدا كالظل . بيد انه لم يكد يقبل على بابها حتى ارتد مذعورا ، تكاد أنفاسه من فرط اضطرابها تتقطع فى الظلام ، فقد رأى من بعيد شبحا على باب الدار ، متلصصا وكأنه يريد أن ينسرق دون أن يراه أحد . . يا لله ! أيكونان على موعد منذ الليلة الأولى ؟ . . أهكذا من الليلة الأولى يستأنف الشيطان جهاده ! ؛ .

ولمعت عيناه ، واربدت سحنته ، وشعر بقـوة هائلة تندفع اندفاعا الى كيانه ، فوقف كالليث الهصور يقضم على أنيابه فى عتمة الليل . وفجأة انقبضت انامله فى خشونة قاسية حتى غدت كالحديد او هى أشد صلابة . ثم اندفع كالسهم الى الباب . وما ان رفع يده الغليظة ليهوى بها على ذلك الشبح المتسلل من داره فى الليل ، حتى وقف مشدوها ينظر فى خجل الى ذلك الظل الذى أقامه القمر المتأهب للرحيل ، على الباب فى الليل .

وما ان رأى ذلك حتى وقف خجلا والخزى يقطر من جبينه ، فقد آذاه أن تسخر منه أوهامه على هذا الشكل المرير القاسي فبكى . ووجد فى الدموع شيئا من الراحة ، لذلك تركها تنساب فى صمت على وجهه المقرور ، تغمره مرة ، وتتكشف عنه مرات . ولما هدأت ثائرته شيئا مد يده المقرورة فجفف دموعه ثم فتح الباب فى رفق ، ودلف الى الدار حذرا ، يريد الا يراه أحد أو يرى أحدا . وفجأة ألفى نفسه يجلس على مقعد مريح اطمأن له جسده المتعب . وفجأة أيضا فتح عينيه ، فاذا به يرى زوجه امامه على السرير تسبح فى نوم عميق . وقد احتضنت وليدها فى حنان رفيق ، كصدرها الناعم الأملس الذى اتخذ منه الطفل وسادة لينة وضع عليها راسه الصغير الجميل، فبدلا من أن تسره هذه الصورة الجميلة التى رسمت خطوطها يد الله، وجد نفسه يغمض عينيه ، ولكن على قلب يتنزى ، وفؤاد يتلظى ، وجسد تعتمل النار فى قلبه ، وتلهبه بسياط لا قبل له باحتمالها ، فعاد يفتح عينيه ليقع على ساق زوجه عارية قد انكشف عنها الغطاء،

فبدت بيضاء ناصعة ، كأن قطرة واحدة من الاثم لم تستقر عليها . ووجدها وضاءة نقية ، كأن انفاس الشيطان لم تمتد اليها ، فتسلل بنظراته الى جسدها البض الناعم ، فوجده أيضا ناصع البياض كأنه لم يتمرغ يوما فى حمأة الرذيلة أو ينغمس ليلة فى لجة الدنس ... يالله ! االى هذا الحد تتلون الحرباء .. ؟

وحانت منه التفاتة الى وجهها الجميل فطالعه خدها الشبيه « بالتفاحة » فارتعدت فرائصه ، وانخلع قلبه ، واغمض عينيه متمتما .. ترى هل تروى الدماء غلة الصادى .. ؟ ترى هل يعذبها الموت كما تعذبنى حياتى .. ؟ واذا أنا لم أقتلها فهل أجد النار التى تحرق كبدها ، كما وجدت هى الثقاب الذى أشعل جسدى .. ؟

وفتح عينيه مرة أخرى ، فوقعت نظراته على وجه الطفل ، وطالعته قسماته تتألق نورا كالحق ، وتتشح طهرا كالسماء .. يالله ! كأنه لم يكن ابن جريمة ، وكأنه لم ينتسب ظلما الى أحد البله .. !!

وتأمل الطفل بعينيه .. تأمل جماله وبهاءه وفتنته .. ثم تبسم ضاحكا من الشيطان ، وكيف انه يجعل من الاثم والجرم والباطل جمالا وبهاء وفتنة .

وحرك الطفل ذراعه الصغيرة وهو نائم لم يستيقظ .. فحركت الأم ذراعها أيضا وهى نائمة لم تستيقظ .. يالله ! االى هذا الحد تحب الحية فقسها ؟ . وتحس به وتعطف عليه حتى وهى نائمة !! اذن .

واضطربت حواسه لجاة ، فاسرع الى عينيه واغمضهما ومن ثم راح يفكر ، ولكن فى الشىء الذى يطفىء النار .

وكأنما اهتدى الى مورد الماء ، لأنه فتح عينيه مطمئنا هذه المرة على غير ما كان ينتظر ، وارسل بصره من جديد ، ولكن الى الطفل لا الى امه .

وحرك الطفل ذراعه مرة ثانية ، الا ان أمه لم تحس به هذه المرة ولم تحرك ذراعها . لذلك حرك هو ذراعه ، ومد يده وتحسس جبين الطفل ، ثم أمعن النظر فيه وكأنه يراه لأول مرة ، ولاح وجه الطفل لعينيه بشعا كريها كأنه الأفعى . ورأى عينيه الصغيرتين اللتين فتحهما وهو نائم ، تلمعان لمعانا مرعبا مخيفا كما تلمع عين الحية الرقطاء فى عتمة الليل .. وأخافه هذا المنظر البشع الكريه ، وهم بأن يرد يده ، وأن يرتد عنه ، ولكنه فجأة رأى رأس الطفل ينقلب فى عينيه الى رأس ثعبان مخيف هائل ، يكشف عن ناب حاد مدبب ويهم بالانقضاض عليه .. وهم أن يصرخ ولكن هاله الخرس الذى انتابه .. وهم بأن يركض هاربا من الغرفة .. من الدار .. بل من الدنيا كلها . ولكن هالته قدمه التى سمرت تسميرا فى الأرض .. وجاهدته نفسه جهادا قاسيا مريرا .. وجاهد نفسه جهادا أقسى وأمر .. وبعد صراع هائل تصبب له كيانه دماء وماء . سقطت يده عفوا عن جبين الطفل ، لتستقر عند عنقه الأملس الناعم الصغير . وهدأ من روعه أن أنامله كانت أقوى كثيرا مما كان يظن .. وهدأ من روعه أيضا أن عنق الطفل كان أوهى كثيرا مما كان ينتظر .. وأثلج صدره أنه بعد أن استرد يده لحظ عليها نقطا ثلاثا من الدم ...

وتسلل من الدار يمشى رويدا رويدا كالظل . كما تسلل اليها منذ لحظات يمشى رويدا رويدا كالقدر . بيد أنه لم يكد يبتعد قليلا حتى سمع صوتا يتفجر فى سكون الليل ، ويحدث صدى هائلا . كذلك الذى تحدثه فى الأذن صرخة الأم المفجوعة .. وأطربه صوت النواح ، وأثلجته صرخات القلب الذى يحترق ، فأسرع مرتدا الى الدار نشوان ، ليمتع عينيه بمنظر الأفعى وهى تتلوى ، والجسد الدنس وهو يحترق ، والرأس الخبيث وهو يلاقى حتفه . وما أن اقبل على الدار حتى رأى زوجه كشعلة من نار تدور على عقبيها ذاهلة مولولة تقذف عيناها الشرر وتتلمظ جنونا كاللبؤة المفترسة وما أن رأته حتى لاذت بصدره صارخة :

ـ لقد انتقمت منى الخادم ، بأن تسللت الى الدار خلسة وقتلت ابنى وأنا نائمة ... !!

وأدهشه أن توجه زوجه التهمة الى الخادم التى طردتها ، ولا توجهها اليه هو . وهم بأن يقول لها شيئا ، ولكن رائحة كبدها التى أحس بها تحترق أطربته . فقال والفرحة تكاد تكتسح كيانه اكتساحا :

ـ كيف ... ؟

فقالت :

ـ انتقمت منى لأنني عرفت علاقتها الآثمة بأخيك لطفى . يوم عثرت معها على مظروف فيه خمس رسائل ، من رسائل الحب والغـــرام ...

شىء واحد لم يمحه غير الموت ، الذى زار الدار بعد ذلك بأيام .. ذلك هو منظر نقط الدم الثلاث التى جاد بها الطفل على الدنيا ، وهو يذبح بيد ابيه لأيام خلت من مولده .

وفار التنور

كان السكون شاملا لا تشوبه سوى لفحات النار التى تهدر فى قلب التنور الكبير منطلقة من فوهات أربع لوابور كبير جثم كالقدر فى ساحة المخبز وراح يرسل شواظه حمما فى جوفه ، بينما جلس عم جمعه « الخباز » الكهل بجانبه عارى الجسد الا من قطع ثلاث من خيش أسود قديم اشتملها حول خصره وفخذيه وتناول لفافة تبغ من علبة صدئة وضعها أمامه على الأرض وهو يصغى صامتا حينا الى هدير النار التى تزأر زئيرا مجنونا فى قلب التنور ، وحينا الى تلك الأصوات التى تترامى الى أذنيه من وراء ذلك الباب القصير « باب المعجن » مختلطة ممتزجة أشبه بطنين النحل فى الخلية تعرفه وان كنت لا تميزه ، بينما جلس فى الجانب الآخر « الخواجة » يقرأ فى التاشد رومس وقد ثبت منظاره السميك على عينيه الضيقتين وراح يطالع وهو يجتذب بين الحين والحين نفسا طويلا من غليونه الضخم الذى نهمت به شفتاه الغليظتان المترهلتان وكلما قرأ سطرا أو مر بخبر تافه . ألقى نظرة على الساعة الكبيرة المعلقة أمامه وما أن نظر اليها هذه المرة وألفاها قد بلغت الثانية عشرة تماما حتى خلع منظاره السميك والقى بالجريدة جانبا وبادل عم جمعة نظرا بنظر ، ثم مد أصبعه الى جرس بجواره فانطلق الرنين مدويا فى قلب المخبز معلنا بدء العمل ، وفجأة انفتح ذلك الباب القصير وخرج منه خمسة عشر رجلا يتصبب العرق من جباههم ومن أجسامهم العارية الا من قطع الخيش السوداء التى التفت حول الخصر والفخذين يحمل كل واحد على راسه لوحا كبيرا من الصاج الأسود صفت عليه الأرغفة من مختلف الألوان والأحجام ثم القوا بها جميعا بين يدى عم جمعة وعادوا مسرعين ليأتوا بغيرها وقد تعالى لغطهم واختلط ضجيجهم

وغدوا فى سرعتهم وهرولتهم واجسامهم العارية المغبرة وسحنهم الصدئة الباهتة كقطيع ضال يركض فى دائرة محدودة .

وانعم عم جمعه النظر الى تلك الألواح التى تكدست أمامه وفاضت على رأسه وعينيه . ثم الى التنور تصطرع النار فى قلبه فانفرجت شفتاه عن ابتسامة غامضة وتمتم بصوت خفيض وهو يدفع بيده المتراخية باب التنور ــ توكلنا على الله ــ وفجأة انقلب الرجل الكهل المتهافت على نفسه الى مارد جبار مغبر السحنة مظلم القسمات تقذف عيناه الضيقتان شيئا كأنه الشرر وهو يدفع بساعديه تلك الألواح العديدة الثقيلة الى قلب التنور ويرصها رصا منتظما فى سرعة خارقة ، وما أن يفرغ من آخرها حتى يرجع الى اولها وما أن يفرغ منها جميعا حتى يخرجها ويلقى بغيرها ، ومن خلفه الخمسة عشر رجلا كأنهم الزبانية يظهرون فجأة كالقضاء فتتكدس الألواح المكتظة بالأرغفة حول عم جمعة حتى ليكاد يغرق فيها لولا ذلك التنور المجنون الفاغر فاه يلقف كل ما يلقى اليه كأنه جهنم كلما امتلأت قالت هل من مزيد ، وما هى الا لحظة أو لحظات حتى تكدست الارغفة على المناضد والرفوف التى اعدت لها فيثبتها « الخواجة » فى دفتره ثم يسلمها رغيفا رغيفا الى من ينتظرونها خارج المخبز بعرباتهم الصغيرة وأوعيتهم الكبيرة ، وما هى الا لحظة او لحظات أيضا حتى غدا عم جمعة خرقة مبتلة يتصبب العرق من جبينه ويغمر وجهه وعينيه ويسيل كالأقنية على جسده العارى حتى يبلغ ذلك الغطاء الخشن الذى لفه حول خصره وفخذيه فيستقر العرق عليه حينا ولكنه يفيض فيتساقط نقطا على قدمى الشيخ العاريتين المرتعشتين .

وانقضت ساعة واحدة من الساعات الأربع التى تبدأ اذا ما انتصف النهار وتستأنف اذا ما جاوز الليل ثلثيه . بيد أن عم جمعة ولأول مرة بعد تسعة عشر عاما قضاها أمام هذا التنور الكبير، احس فجأة ان شيئا يشبه الخور والانهاك يتسلل رويدا الى قواه

ويرهقها حتى ليكاد يخذلها ويقعده عن العمل ، وما أن شعر بذلك وتأكد منه حتى اغتم غما كبيرا ، فقد ظنه المرض ألم به ، وهو لا يكره شيئا فى الدنيا مثلما يكره المرض ، وليس ذلك لأنه يخافه أو يرهب نهايته بل على العكس ليس يوجد من هو أكثر منه احتمالا له ولأوجاعه ، ولكنه يخشى المرض ويخافه ، لأنه ان أقعده يوما واحدا فى الدار ، فقد جاع أولاده طيلة هذا اليوم الكامل . غير أن تفكيره لم يدم طويلا ، فقد تذكر فجأة أيضا سبب الانهاك الذى نزل به هذا اليوم على غير العادة ، وهو من حسن الحظ الجوع لا المرض، فقد تذكر أنه لم يتناول شيئا يسد به رمقه طيلة النهار ، لأنه غادر الدار مبكرا ولم يكن لديه فيها غير رغيفين اثنين تركهما لزوجه واولاده وانصرف . وقد كان فى نيته ان يمر فى طريقه على صديقه درويش بائع « البليلة » فيأخذ منه شيئا يتبلغ به كما تعود أن يأخذ منه كل صباح بمليمين أو ثلاثة سواء نقده أم لم ينقده ، بيد أنه نسى أن هذا اليوم يوم الجمعة وأن درويش لا يبيع « البليلة » يومه ذلك ، ففيه تغلق المدارس وتتعطل الدراسة ويغيب الطلاب .

وما أن فكر عم « جمعة » فى هذا كله واطمأن الى أنه الجوع لا المرض هو الذى انهك قواه حتى عاد الى هدوئه والى عمله الشاق يزاوله بهمة ونشاط ، ولكن ذلك الهدوء لم يدم طويلا كذلك ، لأن التفكير فى الجوع واسبابه جره دون أن يدرى الى الجوع نفسه ، فقد احس بأحشائه وكأنها تلتوى التواء ، وكأن شيئا يشبه الأسنان يسطو عليها ويعضها بين الحين والحين ، وأن هذه الأسنان حادة مدببة لا ترحم ولا تشفق على تلك الأحشاء والأمعاء الرقيقة المهوكة المتخاذلة فهى تقسو عليها بأنياب لا يقوى الشيخ على احتمال عضها ، بل ولا وخزها ، فلا بد للشيخ من أن يرد هذه الغائلة ، وأن يلقم هذه الأسنان شيئا يغذيها أو يلهيها عن تلك الأحشاء الواهية ، ونظر الشيخ فألفى الأرغفة مكدسة أمامه تكديسا لا حد له ولا حصر، فتطلقت اساريره وانفرجت شفتاه عن ابتسامة فيها كثير من الرضا

والابتهاج ، وهم أن يتناول من بينها رغيفا ويأكله أكلا ويلتهمه التهاما، ومد يده مسرورا ، ولكنه سرعان ما ردها فزعا مذعورا ، تنتفض ذراعه فرقا واضطرابا ، فقد فطن الى أن « الخواجة » خلفه يأخذه ببصره والخواجة قد أباح لعمال المخبز كل شيء فى مخبزه الا أن يأكلوا من عيشه الذى يصنعونه ولو بالثمن . لأن هذا يسبب ارتباكا فى الحسابات ، فالأرغفة تخرج من المعجن بقدر وتدخل التنور بقدر ، ثم توزع بعد ذلك بنفس القدر لا تنقص رغيفا ولا تزيد درهما . وقارن عم « جمعة » بين الاثنين الخواجة والجوع ، أيهما يخاف وأيهما يحتمل أذاه ، وعاود عم جمعة النظر الى الأرغفة المكدسة أمامه ثم الى رغيف سقط عفوا من فوهة التنور عند قدميه .. ماذا يضيره لو اختلس هذا الرغيف اختلاسا ثم دسه سرا بين بطنه هذا الجائع وقطعة الخيش هذه التى يبللها العرق ، ثم يغافل الخواجة ويلتهمه سرا كما اختلسه سرا ؟ ونظر عم جمعة الى الرغيف وأطال النظر ، ثم مد يده مبتهج القسمات ضاحك العين وتناول الرغيف الطازج الجميل الذى سوته يداه وهم بأن يدسه فى ذلك المكان الملائم الذى اختاره ، ولكن يده اللعينة تخاذلت وخانته ، فلم تمتد الى الرغيف ، لأنها خشيت أن تكون عين الخواجة ترقبها، وفكر عم جمعه مرة أخرى وأجهده التفكير .. انه ان ضبط متلبسا بهذه الجريمة فسيكون العقاب قاسيا ، ولا سيما أن الخواجة قد اكتشف منذ ثلاثة أيام فعلة شنعاء حدثت فى المخبز ، وهى أن العشرة آلاف رغيف التى يقذفها التنور فى اليوم وجدت منذ أيام ناقصة ثلاثة ارغفة ، وقد عاد هذا النقص وتكرر مرة ومرة ، ولا بد من أن يدا آثمة هى التى تمتد الى هذه الأرغفة الثلاثة ، ولا بد أن عاملا من العمال قد سولت له نفسه سرقة هذه الأرغفة كل يوم ، ولذلك فالخواجة ينتظر ، ولكن على أحر من الجمر ، ويترقب وهو يشتعل غيظا اللحظة التى يضع فيها يده على هذا السارق ، فان تصادف وكان عم جمعة سيىء الحظ ـ ولابد أن يكون مثله كذلك ـ وضبطه



« وأخرج من قلب التنور الصينية واذا برائحة
الشــواء تشــتد الى أنفــه حلوة شهية »

الخواجة وهو يأكل من الرغيف فماذا يكون الحال ؟ . انه سيرمى بالسرقة دون شك ، وهو يرحب بكل شيء حتى بالمرض الذى يخافه ويرهبه ولا يتهم بهذا الاثم بعد تسعة عشر عاما سلخها من عمره فى خدمة الخواجة أمام هذا التنور .

وفكر عم جمعة مرة أخرى واجهده التفكير ، غير انه هذه المرة وقبل أن يهتدى الى حل كانت الساعات الأربع قد انقضت وبانقضائها خلا المخبز من كل شيء ، من الحركة ومن الخواجة ومن الأرغفة جميعها . وتلفته عم « جمعة » فوجد نفسه وحيدا داخل المخبز الكبير فجلس متخاذلا مهموما وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة مريرة . ومد يده المتراخية وأخرج علبته الصفيح الصدئة ليلف منها لفيفة من التبغ ، ولكنه لم يجد فى العلبة شيئا ، فأعادها ثانية ، ثم أغمض مطرقا وغاب حينا عن دنياه . بيد أنه فجأة سمع صوتا نسويا عذب النغمات ، ينبعث من خلفه قائلا فى دلال حلو جميل :

ـ الصينية ياعم جمعة .

وفتح عم « جمعة » عينيه المقفلتين فاذا بها تراويح احدى خدم الباشا تقف أمامه ، واذا به يتذكر فجأة أن التنور به صينية الشواء الذى أعد لغذاء الباشا ، فهم أن يقوم مسرعا ولكن قواه خانته وعز عليه أن يبدو متخاذلا منهوكا أمام هذه الفتاة التى لم تتعود منه غير النشاط والسرعة والدعابة ، فقال دون أن ينظر اليها بصوت خافت مريض :

ـ بعد نصف ساعة .

ورأت الفتاة تجهما فى وجه عم « جمعة » وانه اليوم على غير مألوفه فلم يعابثها ولم يضاحكها ولم يقل لها دعابة مستملحة من دعاباته وما شاءت أن تثقل عليه ، فانصرفت كما أمرها .

وقام عم جمعة بعد أن انصرفت الفتاة متهالكا يجر قدميه جرا وأخرج من قلب التنور الصينية الكبيرة واذا برائحة الشواء تشتد الى انفه وتنفذ الى خياشيمه حلوة شهية ، فنظر اليه والى لونه

الوردى الجميل والى صدره السمين الذى أنضجه التنور وزادته النار توردا وجمالا فانفرجت شفتاه وتمتم بصـــوت خافت لم تسمعه أذناه :

ـ حظوظ !

وهم بأن يدفع بالصينية ثانية الى قلب التنور ، بيد أن أنامله المرتعشة اصطدمت عفوا بصدر الدندى السمين القائم فى قلبها فعلق بأنامله ذلك السائل الحلو الذى تتدفق رائحته كالمسك فى خياشيمه ، فنظر الى أنامله والى ما عليها من سائل لذيذ الطعم حلو الرائحة وعفوا دون شعور دس أنامله فى فمه وراح يمسح ما عليها بلسانه وشفتيه . وكان طعم ذلك السائل أشهى ما تذوق الشيخ فى حياته . فعاود النظر الى الصينية من جديد وطالعه مرة أخرى صدر الدندى ونظر الى فخذيه المتلئتين وماتت نظراته عليهما وامتد لســانه حتى جاوز شفتيه ، وسال لعابه فجاوز ذقنه الى لحيته الكثة المشعثة المغبرة .. وسبح خياله متجاوزا الصينية الى صاحبها .. ان هذا الشواء اللذيذ أعد ليكون ضمن الغذاء الذى سيتناوله سعادة الباشا . والباشوات ـ كما يقولون ـ لا يتناولون صنفا واحدا من الطعام ، بل لابد من أن تحفل موائدهم بعدة أصناف مختلفة الألوان والأجناس . ومعنى ذلك أن الباشوات لا يجوعون اذا افتقدوا صنفا واحدا من غذائهم . وغير ذلك فتراويح تأتى له كل يوم بهذا الصنف اللذيذ من الشواء لينضجه التنور لسعادة الباشا . ومعنى ذلك ان الباشـــا يتناول كل يوم هذا الشواء المعين بالذات ولابد من أن تكون نفسه قد عافته ولو الى حين ، فماذا يحدث لو لم يأكل الباشا الدندى يوما واحدا من أيام عمره ويأكله عم جمعة مرة واحدة فى حياته ؟ وتلفت عم جمعة حواليه فلم يجد أحدا وعاد مرة أخرى وتلفت حواليه فلم يجد أحدا . ولمعت عيناه وبرقت بريقا مشـــوبا وهو يسرع الى الأبواب ويغلقها ويحكم عليها الاغلاق ، ثم عاد مسرعا ايضا يتلفت حواليه حينا ويسترق السمع احيانا ، ولما لم يسمع ولم ير انفرجت

شفتاه عن ابتسامة عريضة شاعت فى وجهه كله ومن ثم حمل الصينية وهو يتلمظ متنمر الاحشاء ، وتسلل بها يحملها على ذراعيه كالكلب الخائف الذى يحمل بين فكيه صيدا ثمينا . حتى بلغ ركنا قصيا وراء التنور ثم وضعها وجلس دونها ، وما هى الا لحظة كانت كالغمض أو أقل اختلاجا حتى كان الدندى السمين بين يديه قد غرس اسنانه فى صدره ودفن لحيته المشعثة بين فخذيه وراح ينهش اللحم وهو يصعد أنفاسه من منخريه ففمه ، كان مشغولا بما هو أهم من أنفاسه ومن حياته ومن دنياه وكلما اصطدمت شفتاه بعظمة تحسستها اسنانه فان استساغتها قضمها واخفاها فى جوفه ، وان لم تستسغها القى بها فى قلب التنور لتأكلها النار وتذهب معالمها . وما أن فرغ من الشواء حتى تناول الصينية بين يديه وقربها من وجهه ومن ثم غمس فمه وذقنه وعينيه فى مطاويها واخذ يعب عبا من ادامها اللذيذ .. الذى جعلته منه النار شرابا شهيا . ويلعق جوانبها لعقا بلسانه الطويل المتدلى على شفتيه بيد أنه فجأة سقط الوعاء من بين يديه والتفت مذعورا كمن أصابه مس .. فقد سمع طارقا يطرق الباب فى عنف فاصغى منتفضا ومد أذنيه مدا الى مصدر الصوت فاذا بها تراويح تنادى بأعلى صوتها :

ــ الصينية ياعم جمعه !!

واسقط فى يد عم جمعه فقد ارتد اليه عقله الذى كان الجوع قد ذهب به ، ونظر الى الصينية الخالية من الشواء ومن معالمه ، ثم اصغى ثانية الى ذلك الصوت الذى يناديه ، وكأنه الرعد ، ثم الى فعلته الشنعاء التى ارتكبها بيد انه مع ذلك كله استطاع أن يسترد بعض انفاسه ويتمتم بصوت خافت جدا :

ــ بعد ربع ساعة ..

ــ ولكن سيدى ألباشا قد حضر ولابد أن تهيأ المائدة .

ثم انخفض فجأة الصوت الذى كان منذ لحظة كالرعد وتخاذل وضعف وغلبه البكاء وهو يقول :

ـ لا تقطع عيشى ياعم جمعة ..

وثاب عم جمعة الى رشده مرة ثانية وعاوده تفكيره المر ... ان عيشها سينقطع لأنها تأخرت لحظات فى الطريق . واذن فعيش الخدم ورزقهم معلق بتأخر لحظة من اللحظات بل وبكلمة سهلة تخرج من فم السادة . واذا كان هذا هو مصير تراويح فماذا يكون مصيره وهو الذى أؤتمن فخان وحرس فسرق ؟ السجن لا محالة ! فالقانون يحاسب السارق حسابا عسيرا بل القانون لم يوضع الا لهذا .. الا ليكون مصدر اطمئنان السادة .. وألقى عم جمعة على نفسه هذا السؤال .. حتى ولو كانت السرقة بحسن نية ؟ وسرعان مارن الجواب كالصدى فى خاطره ، حتى ولو سرقت رغيفين من «الخواجة» لترد به غائلة الجوع فما بالك اذا سرقت دندى الباشا ؟

واطرق عم جمعه وهوى راسه الثقيل المتعب على صدره المكدود، وهم بأن يقول لنفسه شيئا آخر وان يلقى عليها جوابا آخر ، بيد انه راى فجأة امام عينيه زوجه واولاده الصغار ينتظرون عودته اليهم ومعه الطعام الذى يتبلغون به ، وسمعت أذناه صراخ الأولاد وعويلهم، وكلما عضهم الجوع سألوا عن ابيهم واين هو ؟! فتقول لهم امهم وهى تكفكف عبراتها : لقد زج به فى السجن لأنه أكل شواء الباشا ، وكأن هذه الصورة أفزعته وفجرت الدموع تجرى من عينيه المغلقتين وهم بأن يمد يده ليكفكفها ، بيد أنه فجأة انتفض من مكانه مذعورا فقد سمع طرقا عنيفا على الباب فتلفت حواليه خائفا لعله يرى مكانا يهرب منه غير الباب الذى تقف به تراويح ، ولما لم يجده هم بأن يطرق ثانية غير أن نظرة عارضة حانت منه الى قلب التنور فاذا بالنار ما زالت تصطرع فى قلبه وتزأر زئيرها المرعب المخيف ، فنظر اليها طويلا بعينيه المرتجفتين ثم تعجب لتلك القوة الخارقة التى تدفع بهذا الجحيم الى قلب التنور .. ان هذا « الوابور » الجاثم كالقضاء فى قلب المخبز هو الذى يدفع الى التنور بهذه النار المجنونة التى ان قويت قليلا فسوف لاتبقى ولا تذر . واطمأن الشيخ الى هذه الفكرة

التى خطرت له ، ان هذا لا يكلفه شيئا .. ان دقة واحدة من يده هذه المتخاذلة على قلب الوابور تحدث ثقبا فى خزان البترول وتحدث أيضا المعجزة بأن تشتعل النار وتمتد ألسنتها الى التنور فتأكله والى المخبز فتحرقه . ويكون هو أول الباكين على مخبز الخواجة الذى احترق وشواء الباشا الذى أكلته النار ..

واقترب عم جمعه من التنور قليلا ووقف بجوار خزان البترول لحظات وراح ينظر اليها مرة والى تلك الصينية الفارغة الملقاة بعيدا مرات وهو جاحظ العين مربد السحنة متحجر القسمات متكالب الأنامل على يد الفأس الكبيرة التى معه . وعلى حين بغتة دوى الطرق على الباب كأنه الرعد .. ولكن عم جمعة لم يسمعه هذه المرة لأن دوى الفأس وهى تنهال على خزان البترول الملتهب كان أقوى من دوى الطرق الذى يصم الآذان على الباب . وفجأة انفجر الخزان وفار التنور وامتدت ألسنة النار الى الحى كله .

شىء واحد هو الذى انخلع له قلب تراويح وراحت تحدث به نفسها وتقصه على غيرها من الناس كلما ثابت الى رشدها وفارقتها اللوثة التى اصابتها منذ ذلك اليوم .. وذلك أنها شهدت بعينى راسها كيف فار التنور .. وكيف احترق المخبز . وكيف تحول جسد عم جمعه الى رماد تذروه ألسنة اللهب ...

~~~~~~~~
~~~~~~~~

بائعة الخطايا

كانت الليـلة من ليالى الشتاء المعـدودة ، فيها اربدت ملامح الكون ، واسودت سحنته ، وغدا كالبربرية المجنونة تصرخ وتزأر زئيرا مخيفـــا مرعبا • فالريح قد هبت هائجة ، تتخبط فى الفضاء المظلم ، والبرق ينذرها لمعانه الخاطف بسيل لا قبل لها به يخمـد انفاسها . والرعد يدوى فى أجواز الكون الأسود . وترن أجراسه فى ساحته معلنة أن شتاء هذا العام سيتمخض هـذه الساعة عن ليلة مشهودة تتيه على لياليه السود الحالكة .

وكان الرجل الوحيد الذى يشعر بذلك فى الحى كله ويخشاه ويعمل له ألف حساب ، هو الجاويش (نوفل) الذى كان يسير فى الحى يدق بحـــذائه الضخم دقا منتظما وينظر شـــذرا الى أولئك السكارى الذين يتمايلون فى قحة ، ويضحكون على غير استحياء ، ويتماجنون مجونا قذرا صرع انسانيتهم وشـــوه رجولتهم ، حتى غدوا فى مباذلهم وسحنهم الشوهاء كوحوش الغـــاب التى أدمت وجوهها صفعات الأشجار والأحراش ، باحثين فى جنون عن الفريسة فـلا يســعه الا ان يغمض عينيه مغيظا على انه لسوء حظـه يعود فيفتحهما أيضا ، ولكن على جماعة أخرى من أشباه النساء دميمات، شاحبات الوجوه ، كالحات العيون من كثرة التطلع الى الخطيئة ، حتى خبت نظرتها ، واستقلت على الجفن ذبالة شاحبة مهزولة فلا العين المتعبة بقادرة على أن تلفظها وتموت ، ولا هى بقادرة على أن تستردها وتحيا . قد وقفن على أبواب ملوثة مشوهة كخلقتهن ، يضحكن لكل مار ضـحكات قذرة بحاء ، كأنها فى مسمع الجاويش نوفل بصقات تلقى على أذنيه او كأنها على حد تعبيره بصمات الشيطان يبصمها على لوح الخطيئة ليثبت للشر وجوده وجهوده .

وكان الجاويش نوفل ينظر الى هذا كله فيتميز غيظا ويخرج ساعته كأنه يستعجلها ولكنها خبيثة تزحف زحفا متباطئا كما لو أنها لا تريد أبدا أن تبلغ العاشرة والنصف ، وهو الموعد الرسمي الذى تنطلق فيه صفارته مدوية فى الحى معلنة أن موعد « بيع الخطايا » قد انتهى هذه الليلة ، وأن سوقها قد انفض . وما تكاد تنطلق حتى يهلع لصوتها كل شيء فى الحى حتى فراغ تلك الغرف الضيقة الشبيهة بأقبية المقابر ، تتصاعد منها رائحة عفنة ، لا يقطع منها الا رائحة النبيذ الحامض ، المتصاعد مع الضحكات البحاء الملوثة التى كانت تلفظها بين آونة واخرى أفواه السكارى ، ورواد هذا الحى ، والتى كان على أثرها أيضا ينصرف سكان تلك الغرف ، والمطيفون بتلك الشقوق التى سميت تجوزا « حوارى وازقة » والتى ــ من سوء حظ الجاويش نوفل ــ أنها انبثت فى هذا الحى على غير وحــدة أو انتظام كما تنبث فى الدروب الخربة جحور الثعابين وأعشاش النمـــل .

غير أن عزاءه الوحيد عن هذا كله كان فى هذه الصفارة التى على صوتها البشع يولى مدبرا كل من فى الحى ، كما يولى الذباب المتجمع على جيفة عفنة انهـــار تراب الشاطىء من تحتها فسقطت فجأة فى اليم . هذه الصفارة واطاعة امرها اطاعة عمياء كانت تعزيته ، بل كثيرا ما زادت فأشعرته بلذة تغمره ولا سيما حين يقع بصره مصادفة بعد أن تنطلق الصفارة ولو بخمس دقائق فقط على شبح ما زال باقيا يتسكع فى الحى . فكان ينقض عليه كالوحش المفترس ؛ يوسعه ضربا ولكما وهو اشد ما يكون اغتباطا بهذا الاعتداء الذى كان هو نفسه لا يعرف الدافع اليه ولا باعث لذته به .

لذلك ما أن نظر الى ساعته للمرة الستين أو السبعين فى هذه الليلة المقفلة العينين والفاها قد بلغت العاشرة والنصف حتى اسرع الى صفارته ، وثبتها بين شفتيه الغليظتين وراح ينفخ فيها بكل ما أوتى من قوة . ثم اسرع وأعاد الكرة ثلاثا ــ كالتعليمات ــ وردها

على الأثر الى صدره مسرعا الى عمود من أعمدة النور يرقب بجواره مختبئا ، وكأنه ينظر مبتهجا الى أولئك الذين ينصرفون مهرولين لأمره ، وحين سكن الحى من العابرين ، غادر مكانه وطفق يخطو خطوا لينا . وهو يمد نظراته مدا فى الليل لعله يعثر على فريسة ابقاها سوء الطالع لأمر ما فى الحى المقفر .

وكانت هى قد سمعت الصفارة كما سمعها من فى الغرف المجاورة ، فانصرفت مسرعة الى ثوب وقور معلق على مسمار صدىء فى الحائط ، كانت ترتديه كلما غادرت هذا الحانوت الى دارها الكائنة فى حى آخر ليس للجاويش نوفل عليه سلطان تقضى فيها بقية الليل حتى اذا ما أقبل النهار عادت من جديد لمزاولة تجارتها هذه ... ومدت يدها لتتناول الثوب من فوق المسمار ، ولكن العلة الخبيثة التى تلازمها فاجأتها بيقظتها الباغتة ، وأحست بها تتثاءب فى صدرها ، وتتمطى بين الرئتين فهوت على السرير تتلوى وهى تسعل سعالها الأجوف القبيح الذى يمزق صدرها ، ويشعل النار فى جوارحها ، والذى داهمها فجأة وغدا لا يحول عنها وقد احتقن وجهها وجحظت عيناها ، وتمشت فى عروقها تلك الزرقة التى يدفع بها الدم الملوث فتخنق الجسد خنقا وتخلف عليه تلك النقط السود المنبسطة التى تستحيل مع عمر الداء الى صفرة تعبر عن جبروت الداء الوبيل .

ومكثت حينا تتلوى كلما مزق صدرها السعال ، وهى أشد ما تكون خوفا ، لا على جسدها الذى يختنق ويموت أمامها ، ولكن خشية أن يمتد بها السعال لحظات فتتأخر وتقع فى قبضة الجاويش نوفل . لذلك ما ان سكت عنها السعال حتى أسرعت الى الثوب وارتدته لاهثة وتلمست وجهها فى المرآة المكسورة المعلقة بجانب المسمار فألفته ملطخا بألوان المساحيق الرخيصة فمالت تمسحها بخرقة قديمة ابدت صفرته الشاحبة المتمشية فى الوجه كله لعينيها هذه المرة اشد اصفرارا واكثر شحوبا فلم تزد على انها صعدت زفرة مشتعلة انفلتت من بين شفتيها المقرورتين فكفأت المرآة

المكسورة وانصرفت مسرعة تطوى ذلك الدرج القصير المتآكل الذى تهبطه وتصعده عشرات المرات فى اليوم واحيانا فى الساعة ، ولم تكد تبلغ منتصفه حتى ألفت شبحا مخمورا يتمايل ويتأرجح على ساقين هزيلتين لاتمسكانه عن السقوط فالقى بنفسه فى أحضانها دون استئذان ، فقد قيل له - ان كل نساء هذا الحى ملك له - وهمت بأن تنحيه الى بعيد وذكرته بالصفارة وكان لا يفهم أو أنه لا يريد ان يفهم ، فكشرت عن عينين منطفئتين زوت ما بينهمـــا وجمعت عزمها على أن تدفعه فى عنف وتخلى منه طريقها .

وما امتدت يدها لتخلص خصرها من بين يديه اللتين التفتا حوله حتى اصطدمت أناملها عفوا بأوراق ملساء لينة كانت في يده فتحسستها فعرفتها وعرفت قيمتها وانها أكثر من الثمن الذى سعرت به سلعتها ، فاعتمدت تلك الابتسامة المعروفة التى ترمز الى القبول ، والتى تعلم ثغرها كيف يجيد صبغها وتقديمها فى الوقت المناسب ، وطبعتها عليه ، ومن ثم قفلت به راجعة ، مفترة الثغر ، متطلقة الوجه . وعادت بعد حين من جـــديد تهبط ذلك الدرج المتآكل . على أنها ارتدت عند الباب الخارجى فقد راعها زئير السيل الذى انطلق كالأسد المفترس راح يلطم الأرض فى قسوة وعنف لطما قويا فجر وجهها ، وحوله الى قنوات ومستنقعات .. ووقفت حينا ترقب السيل خائفة .. ووقفت حينا تفكر كيف السبيل الى بلوغ تلك الدار وفيها صغارها الثلاثة الذين سيتضورون جوعا ان لم تذهب أليهم وتقدم لهم العشاء .. ليت هذا الأبله المخمور اخطأ بابها .. ليته لم يرها .. بل ليته كان لا يملك الخمسين قرشا التى أغراها بها فى هذا الوقت المتأخر من الليل .. ومع ذلك فقد ذهب بها الظن الى أن الأمر حين يسوء ويتعقد ، لا يتعدى صفعة أو صفعتين من كف الجاويش نوفل الغليظة المتحجرة ، وهو يهون فى سبيل شراء الحذاء الذي طلبه منها ابنها الصغير والح فى طلبه ليلة الأمس ونظرت الى السماء فاذا بها تمطر الأرض وابلا من السيل ، فأغلقت الباب وعادت

من جديد تصعد الدرج المتآكل ، ومن ثم دلفت الى تلك الغـرفة الموحشة لتبيت فيها هذه الليلة ، وللمرة الأولى فى حياتها .

نظرت الى الغرفة فألفتها فى عينيها قـذرة كريهة متهالكة فى قذارتها ، ألفتها كبطن جيفة مبقورة خرجت أمعاؤها الملوثة وانثالت على جوانبها ، غارقة فى الدم الأسود ، فالسرير الصدىء قد انكسرت عوارضه فربطته بحبل أحال الذباب المتراكم عليه لونه الأبيض أسود دميما . والحشية التى عليه قد تآكلت وبدت حروقها التى لوثتها الحشرات مثل بثور الجدرى ، ونتوء الجذام ، وملاءته التى تعبت من كثرة تحسيس أقدام الخطيئة عليها ، قد تهرأت وتكورت منطوية على قذارتهـا كما ينطوى رأس الخنزير الميت على الدم الملوث الذى تجمد فيه . والمصباح الكهربائى لذى تدلى على سلك أسود اتخـذ منه طائف الحشرات مأوى له فى الليل ، قد شحب لونه ومالت صفرته تحكى صفرة وجهها المسلول .

واطفأت الأنوار واستلقت بذلك الثوب الوقور على السرير لعل النوم يدركها فيحول بينها وبين الحياة ، ولو الى الصباح ، ولكن النوم المتصل الذى كانت ترجوه لم يدركها سريعا . وكان لا يدرك بسرعة أحدا فى هذا الحى ، فراحت تجاهد نفسها جهد المستميت لتنام ، فمرة تجاهد عقلها كى لا يذهب بها الى أولئك الصغار الذين يتضورون جوعا فى الليل ، ومرة تجاهد أذنها كى لاتسمع زئير السيل الذى يلطم زجاج النافذة فى الخارج ، وكأنه القدر يريد أن ينفذ اليها منها . ومرة ومرة .. الى أن أتتها رحمة الله فاستغرقت فى نوم عميق . بيد أن هذا لم يدم طويلا ، فقد أحست فجأة وهى نائمة بباب الغرفة يفتح على مصراعيه ، كما لو كان يفتح أول الليل من تلقاء نفسه لكل عابر ، وتنفذ منه تلك الأشباح نفسها التى دخلت منه من وقت أن انتصف النهار الى أن صرخت فى الحى صفارة الجاويش نوفل .. ورأت جلفا يدلف من الباب فى قحة ، وما كاد يجلس قليلا حتى يأمرها بأن تشرب معه كأسا من الزجاجة التى فى جيبه ، فترفض

لان الخمر تؤذيها ، ولكنه يصر ويكشر لها عن أنياب سود مدببة فتخاف وتتناول منه الكأس وتفرغها فى جوفها راغمة ، ثم بعد حين يقذف لها بالعشرة القروش وينصرف .. ويقبل غيره ، يقبل ذلك الرجل العجوز الذى بلغ من الكبر عتيا وما أن دلف الى الغرفة لاهثا، وبلغ السرير لاهثا أيضا حتى تداعى عليه ، وما أن تبلغه هى وتلقى بنفسها بين أحضانه حتى تغمر وجهها فجأة وصدرها العارى مادة لزجة قذرة ، تفوح منها رائحة عفنة ، هى رائحة الطعام والخمر المختزنة فى جوفه ، واذا بالرائحة العفنة تغمر الغرفة ، كما غمر القىء وجهها وصدرها والسرير الذى تبيع عليه بضاعتها ، واذا بها بدل أن تغضب تشفق على الشيخ حينا وعلى نفسها احيانا الى أن ينقدها العشرة القروش وينصرف لاهثا كما أقبل لاهثا .. ثم يقبل آخر وآخر ، وكل يأخذ شيئا ، وكل يدفع الجعل نفسه ، ثم يقبل ذلك الصبى الحدث ، الجميل الطلعة ، الطاهر المحيا ، الناصع الجبين الذى لم يكن قد تلوث بعد ، ويقبل خجلا ، ويجلس الى جوارها خجلا ، ثم هو ينظر اليها خجلا أيضا ، وهو يناولها الثمن قبل أن يأخذ البضاعة ، ولكنها تشفق عليه ، ثم هى تشفق على نفسها منه ! وعلى يدها هذه ان هى امتدت الى هذا الجبين ولوثته ، ثم هى ترجوه وتلح فى الرجاء ، ثم هى أيضا ودون أن تدرى تنهل دموعها فتقبل يدى الصبى وتفهمه بأن أى شىء تافه فيه حتى تراب هذه اللفافة التى فى يده والتى لم يعرف كيف يقبض عليها بين أنامله ، لأنه لم يتعود التدخين . ان تراب هذه اللفافة التى تمسها يده لأكرم من أن يلقى بها فى هذا الدنس ، ثم هى تعرف أنه لا يملك غير العشرة القروش فتأخذها منه لا نظير جلستها معه كما أفهمته ولكن لكى يطمئن قلبها وتضمن أنه سوف لا يأثم حتى هذه الليلة على الأقل . وبذلك تكون قد قدمت للخير الذى تشتهيه صنيعا . وبذلك أيضا تكون قد فوتت على الشيطان شرا . ويهم الصبى بأن ينصرف خجلا ، كما أقبل خجلا ، واذا بها عند الباب تدس له فى جيبه قطعة من الحلوى اغلى

ثمنا من العشرة القروش التى أخذتها ، وكانت قد احتفظت بها من أول النهار لتقسمها بين أبنائها الثلاثة . .

وينصرف الصبى ليقبل ذ لك الرجل البشع المنظر القوى التركيب، ولكنه يقبل مبتسما لين العريكة رغم ثورة سحنته واحمرار عينيه ، فيلاطفها ويعابثها عبثا فيه الكثير جدا من الظرف الذى تطمئن اليه ، ثم هو فجأة يرجوها ويلح فى الرجاء ، ويتوسل ويسرف فى التوسل، مستعينا حينا بقوته وحينا بحافظته المكتظة ، وأحيانا بتوسلاته هذه الحارة الصادقة ، ولكن هذا الأمر ليس لها الا أن ترفضه وليس عليها الا أن ترده ، لأن الدنيا وما فيها من متاع قد تتضاءل والعرض وما فيه من قداسة قد يهون ايضا ، وقد يهون الشرف ، وقد تهون الأخلاق، وقد يهون كل ما فى الوجود عند المرأة الا هذا الذى تموت دونه البغى ولما لم ير فائدة يغلظ لها فى القول . ولما لم يجد نتيجة يرفع يده الخشنة الغليظة ويهوى بها على رأسها المتعب فتنطرح على الأرض صارخة ، واذا بها تستيقظ مذعورة خائفة ، واذا بها تقوم من السرير هلعة ، وتعرف أنها كانت تحلم ، واذا بالسيل قد حطم زجاج النافذة، واندفع كالقدر يريد أن ينقض على ظلام الغرفة المريب الذى احتوى كل تلك الأشباح التى تطاردها حتى فى النوم ، وكأنها تريد أن تفتك بها حتى ذلك الصبى الصغير الذى أشفقت عليه يريد هو الآخر أن ينقض عليها ، فخافت . وجحظت عيناها وراحتا تبرقان فى الظلام بريقا مرعبا انعكس على صفحة المرآة المكسورة لعينيها ، فارتاعت وصرخت صرخة مدوية تمزقت لها أسجاف الظلام الموحش المخيم وانفلتت هاربة من الغرفة . وما أن بلغت الشارع حتى راحت تركض على غير وعى وهى تتلفت حواليها دون أن تحس بصفعات السيل التى راحت تلطم فى قسوة وجهها الأصفر ، ولكنها فجأة تسمرت قدماها وجحظت عيناها . . ووقفت كالتمثال يتسرب السيل الجارف عن رأسه ، فقد سمعت صوت الجاويش نوفل يأمرها بالوقوف . .

واقترب منها خطوات ، ورأت الشر يندلع من عينيه كالشرر

المتطاير ، فارتاعت واصطكت جوارحها ، وهمت ان تنجو بنفسها من هذا الشر المخيف ، فاستدارت فى قوة غاشمة لم تعرف هى كيف واتتها ، ولا من أين جاءت اليها ، واندفعت كالسهم المشدود عندما يفلت من القوس ، ولكن راسها اصطدم فجأة بعامود النور القائم خلفها ، فهوت على الأرض تتفجر منها الدماء التى كانت كلما غسلها السيل المنهمر عادت الى الوجه فطمسته .

وتقدم الجاويش نوفل مبتهجا للفريسة التى سقطت ، مبتسما ملء شدقيه من هذه البلهاء التى سول لها غرورها أن تفلت منه . ولما دنا منها غاظه أنها لم تسرع بالوقوف اجلالا له . ولما سمع أنينها غاظه أيضا أنها تسخر منه الى حد أنها تستغفله فتتمارض .. ورفع حذاءه الأسود الضخم وركلها فى صدرها ركلة أودعها كل ما يملك من قوة ، فلم تزد على انها أدارت اليه ظهرها ، وهم أن يدفع اليها بالثانية . ولكن قدمه تخاذلت وفترت من تلقاء نفسها .

شيء واحد ـ بعد أن تحدث فى التليفون ـ هو الذى ضايقه جدا ، وجعله يعاود سيره فى الليل ويدق بحذائه الضخم دقا منتظما وهو يتحسس شاربه الطويل ؛ تلك هى النظم والقوانين التى حرمت على الاسعاف نقل الموتى ..

حكمة القدر

كان طفلا فى الخامسة من عمره ، ولكنه كان يختلف عن الأطفال وعن الناس جميعا ، كما تختلف السماء عن الأرض ، فهو لم يستقبل الدنيا كما استقبلها النـــاس ، ولم يخلق فيها كما خلقوا . وانما استقبلها . دميما بشعا مشوه الوجه . لاتكاد العين تقع على خلقته حتى ترتد هلعة جازعة تعوذ بالله من شر هذا الوجه البشع القبيح الذى صرعه المرض الخبيث وهو لم يزل جنينا فى بطن أمه . فتآكل أنفه وانشقت شفتاه وتدلتا على ذقن مدبب بغيض وأسنان ناتئة بشعة المنظر كريهة الصورة . كعينيه الجاحظتين اللتين التهم الداء الوبيل أهدابهما وجفونهما فبـدتا عاريتين قبيحتين تؤذى صورتهما النظر والنفس جميعا .

وكما جاء الى هذه الدنيا منكر الخلقة . جاء اليها كذلك منكر الأب . فقد كانت أمه امرأة من النور نزحت من الجنوب واستوطنت القرية . وهو لما يزل علقة فى أحشائها فوضعته لتمام تسعة أشهر من مقدمها . بل قد زعم من زعم أنها لم تجىء به وانما جاء هو اليها فى الطريق من احدى القرى التى كانت تجوبها . أما أهل الحـذق والذكاء من شيوخ القرية وعجائزها فيشكون فى ذلك كله . ويقطعون بأن هذا الطفل البائس انما جاء الى أمه فى تلك الأيام الأوائل التى هبطت فيها هذه النورية اللعوب قريتهم واستوطنتها واتخذت من ضرب الرمل والودع وسيلة لغاية لم تخف على ذكائهم وفطنتهم . لذلك اطلقوا على الطفل منذ مولده اسم أمه التى هربت من القرية بعد أن لفظت جنينها . فعرف فى القرية باسم « على نبوية » أما نحن جماعة الصبية الذين كنا نلعب ــ الاستغماية ــ فى جرن الشـيخ

رضوان فى ليالى القمر . فكنا نسميه « عفريت الجرن » لأن مجرد رؤيته كانت تصور لنا أشباح الجن والشياطين فيتفرق شملنا ونعدو الى بيوتنا نرتعد فرقا من بشاعة خلقته . والغريب أننا ما كنا نراه ولا ندرى كيف كنا نراه . وانما أذكر أنه ما من ليـــلة لعبنا فيها « الاستغماية » فى الجرن الا ورأينا أمامنا « على نبوية » وكأنه هبط علينا من السماء أو خرج الينا من الأرض . أو من بين تلال الروث التى تزدحم بها مداخل القرية . فنفر هاربين والرعب يملأ قلوبنا ، وكان هو ينظر الى هذا كله ويحس به فلا يسعه الا أن ينظر الينا دهشا وكأنه يسأل نفسه لماذا يهربون منى .. ؟ ثم ينظر حواليه فلا يجد غير نفســه وغير الفضاء الذى حوله . والصمت الذى يكتنفه. فينفجر باكيا . ثم يعود من حيث اتى يهيم على وجهه بين تلك الأكوام من الأتربة والروث والقاذورات . دون أن يجرؤ على اختراق دروب القرية وأزقتها اللهم الا اذا عضه الجوع . وفرغ منديله الأســود المهلهل الذى كان يضع فيه كسر الخبز وفتاته مما يتصدق عليه به أهل الخير فى القرية . وكثيرا ما كانت تتدفق عليه بعض هـــذه الصدقات تدفقا ، وان لم تكن كلها لوجه الخير . وانما هو الحرص على تجنب رؤيته ورؤية وجهه المشوه الكريه . لذلك كان اذا طرق بابا طالبا صدقة من الصدقات يسد بها رمقه سرعان ما تقدم اليه حتى لا ينتظر وحتى لا تعود العين فتقع عليه مرة أخرى . وكثيرا ما كانت تقدم اليه هذه الصدقات من خلف الأبواب . تمتـد بها الأيدى فقط لكى لا تراه العين فتجزع وتتأذى .

وهكذا قضى ايام طفولته كالكلب الأجرب ، يهيم على وجهه بين الأتربة وتلال الروث ، الى أن بعث الله اليه رجلا يعطف عليه ، وكان هو الشيخ رضوان صاحب الجرن الذى نلعب فيه ، الشيخ رضوان بالذات ، لأنه كان أكثر أهل القرية رؤية له واتصالا به ، فأشفق عليه وعلى حياته هذه البائسة ودنياه هذه المريرة ، فآواه واحتضنه وظل يتنقل به من طبيب الى مستشفى حتى شفى تماما من دائه الوبيل

الذى ولد معه ، وان كانت خلقته قد ظلت تبعث فى نفوس الناس جميعا الرعب والاشمئزاز ، الا نفس الشيخ واسرته الكريمة التى جعلته فردا منها .

ولما كبر الطفل شيئا بعث به الشيخ الى الحقل مع الماشية ، ثم مع الحمر تحمل السماد الى الحقل ذاهبة ، والأتربة الى حظيرة الماشية آيبة ، ثم كبر « على نبوية » واشتد ساعده وغدا رجلا يعيش فى كنف الشيخ ويعمل فى حقله وكان للشيخ عشرة أفدنة فى القرية تولى الغلام أمرها ، وكان من فضل الله عليه أن وهبه ذكاء ومهارة وفنا فى أصول الزراعة وشئونها ، حتى غدا أمره حديث أهل القرية والقرى المجاورة وغدت مزرعة الشيخ بفضله كزهرة يانعة فى باقة ذابلة ، تغل عليه أضعاف ما كانت تغل فى أعوامها السابقة ، لذلك بدأت الغيرة تدب فى نفوس أهل القرية وراح الكل ينشدون وده ويعملون جهدهم على اغراء « على نبوية » ويعرضون عليه ألوانا من النعمة وصنوفا متعددة من الرزق لكى يترك عمله عند الشيخ ويعمل عندهم ، ولكن الفتى كان على غير ما يظنون فقد عوضه الله عن دمامة الخلقة وقبح الوجه ، صفاء النفس ونقاء السريرة وسلامة الطوية ، فرد كل يد امتدت اليه الا يد الرجل الذى انتشله من وهدة الفقر والمرض والتسول ، وقنع بحياته هذه التى لم يكن يطمع فى خير منها .

بيد أنه حدث فى تلك الأيام حادث غير حياة الشاب وقلبها رأسا على عقب فقد أتاحت بعض الظروف لأحد الأثرياء أن يشترى ضيعة واسعة من أملاك الحكومة كانت مجاورة للقرية ، وقد ترامت اليه شهرة « على نبوية » ومهارته فى شئون الزراعة وخبرته الفنية التى وهبها الله له فطلبه الباشا واغراه بالمال والمنصب ، ولكنه أبى الا أن يستأذن الشيخ قبل أن يدخل فى خدمة الباشا فاستأذن له الباشا من الشيخ فأذن ، وفجأة انتقل « على نبوية » من الأرض الى السماء ومن الشيخ الى كنف الباشا ، ومن عشرة أفدنة الى ثلاثة آلاف ، ومن القدم العارية والثوب المهلهل ، الى الحذاء اللامع والحلة

الأنيقة والطربوش الأحمر ، وكذلك انتقل معه التفتيش الكبير المترامى الأطراف ، من أرض قاحلة جرداء تأخذ دائما ولا تعطى شيئا الى مزرعة تدر المال الوفير ، وتأتى بخير الثمرات ، والباشا أسعد ما يكون بعلى أفندى ناظر زراعته وعلى أفندى أسعد ما يكون بهذا المصير الذى صار اليه ، والهناء الوارف الذى أفاء الله به عليه والمال الذى أغدقه عليه الباشا دون حساب ، حتى نسى أسمه وماضيه ونسى معهما أيضا دمامته وقبحه ووجهه المشوه البغيض ، والمال يصنع الرجال ويقيم الدول ، فكيف لا يقوم فردا ويصلح معوجا ، ولكن هذا المال لحكمة يعلمها الله لا يستطيع ان يصنع القلوب ، ويخلق الأنفس ويبعد عنها ما قدر لها من الشقاء وما كتب عليها من الآلام التى تحرق القلوب وتأتى على الجوانح فتحيلها الى رماد ، فقد حدث فى العام الماضى أن ذهب على أفندى الى المدينة ليقدم للباشا حسابات العام ويعطيه ثمن المحصول وكانت أول مرة يذهب فيها الى المدينة ويدخل قصر الباشا الفخم الضخم القائم على النيل عند الجزيرة . وبينا كان يجتاز حديقة القصر الغناء اذا به يرى عفو المصادفة فتاة على جانب كبير من الجمال تبهر طلعتها النفس والعين معا . جالسة على مقعد وثير ، تتيه عجبا فى ثوب جميل محكم يفصح فى وضوح عن مكامن الفتنة والاغراء فى جسدها الجميل .

وما أن رآها من بعيد حتى وقف مبهور الأنفاس ينظر الى هذا الجمال الذى لم تر مثله عين وهذا الوجه الذى صاغه الله من فلق الصبح . وما أن استوعبت جمالها عيناه وتذوق فتنتها قلبه وعرف أن الممشى الذى يسلكه الى القصر سيدنيه منها حتى كاد يرتد مأخوذا كمن أصابه مس . فقد نفذت الى خاطره صورة وجهه الدميم المشوه بانفه المتآكل وشفتيه المتدليتين وعينيه الجاحظتين ، وقفزت الى خاطره هذه الصورة المفزعة والى جانبها صورة الفتاة الساحرة . فذعر وكاد يرجع حتى لا تتأذى الفتاة بمرآه ان وقعت عليه عيناها . وكان لابد له من أن يسير . فسار فعلاً ولكن بعد أن

حجب قبح وجهه ودمامة خلقته بمظروف كبير كان فى يده . والتقى بالباشا فى القصر . وقدم له حساب العام مضطربا ، وناوله مبلغا ضخما من المال تخلب له لعاب الباشا . لأن ايرادات هذا العام بلغت ضعف ما كانت فى الأعوام السابقة . بفضل مجهود على أفندى . وكاد الباشا يرقص طربا لهذه النتيجة السارة ويلقى بنفسه فى أحضان ناظر زراعته ليقبله شاكرا له هذا الفضل حامدا له هذه النتيجة . بيد انه اكتفى بأن شد على يده مهنئا ومقدرا أيضا . ثم مد يده اليه وناوله ورقة كبيرة من أوراق المال مكافأة له على مجهوده . وهم على أفندى أن يرفض هذا المال فقد آمن الآن فقط بأن المال أتفه مما كان يظن وأحقر مما كان ينتظر فهو مهما تجمع وتكدس . فلن يستطيع أن يصلح ما أفسده الدهر . أو يرد الى بعض النفوس ما تنشد من أمن وترجو من هناء وتود من سعادة واطمئنان . ولكن الباشا كان قد أمر . والباشا لا يرد له أمر . لذلك تناول من يده الورقة المالية شاكرا . ثم انصرف يعالج تلك النار التى تعتمل فى قلبه وتحرق فؤاده حتى لتكاد تحيله الى رماد . ومر فى الطريق على الفتاة نفسها ، ورأى جمالها مرة ثانية . ورأى أيضا فى مرآة خاطره صورة وجهه الذى زاده الغيظ والحنق والألم ، دمامة وقبحا وبشاعة خلقة . فكاد يسقط فى الطريق .

ولما رجع الى التفتيش ظل اياما واجما منطويا على نفسه يفكر فى امره تفكيرا عميقا مرهقا تحمل منه ما لا يطيق . فكر فى وجهه هذا الدميم المشوه ، وفى خلقته هذه البغيضة الكريهة . وفى مصيره الذى تحدد قبل أن يولد . وفى مهنته هذه التى يزاولها والتى لاتجدى عليه شيئا من سعادة الحياة وان أجدت عليه المال الكثير ، ولن تجعل أحدا يرضى أو يعطف عليه . حتى الباشا نفسه فليس عطفه عليه الا لسبب لولاه للفظه هو أيضا كما لفظه الناس . ونبذه كما نبذته الصبية يوم كان صبيا لا يكاد يجد السبيل الى شىء مما يتمتع به الأطفـــــال !

وجره هذا التفكير المضطرب الى ما هو أكثر الما وارهاقا وثقلا من هذا المصير الأسود المحتوم .. لماذا خلق كذلك . ؟ لماذا لم يخلق كما تخلق الناس . ؟ لماذا لم يكن كغيره جميل الصورة . طلق المحيا حلو القسمات ، فلا تلفظه عين كعين تلك الفتاة التى رآها فى قصر الباشا والتى صاغها الله من فلق الصبح ؟!

وما أن ذكر تلك الفتاة ومرت صورتها فى خاطره حتى وجد نفسه يفكر فيها هى أيضا تفكيرا فيه كثير من العمق والارهاق ، يفكر فى وجهها المشرق القسمات كأنه النور ، يفكر حتى فى ذلك المقعد الوثير الذى كانت جالسة عليه بالحديقة ، وفى ذلك المنظار الأخضر الذى كان يزين عينيها كما يزين الغمام القمر . فكر فى ذلك كله وتأمله واستغرق فيه . ووجد فى هذا التأمل نشوة فحرص عليها حتى أفنى فيها نفسه وغاب عن دنياه . بيد أنه ارتد فجأة الى نفسه، أو ردت هى اليه فاذا هو الخائف الوجل كمن انتزع قلبه أو مسه طائف من الجن . واذا هو يفزع الى عقله فلا يكاد يجده . والى الصمت الذى حوله فلا يكاد يحس به . فخاف وتملكه الذعر والاضطراب . وعرف أنه الخطب قد دهمه من حيث لا يدرى . وانها النازلة قد اكتنفته واحاطت به ، وأنه الحب قد ألم به وانتزع منه القلب والعقل والروح معا . فطار صوابه .

وكما أفزعته هذه الحقيقة التى تأكد منها أفزعته حقيقة أخرى لا تقل عن سابقتها قسوة وعنفا وهى أنه يحب ، او هو قد أحب فعلا ابنة الباشا الذى يشتغل خادما عنده . وما أن عرف ذلك وتأكد منه حتى أجهش يعالج البكاء لعل الدموع الغزار توقظ قلبه هذا الذى أصابه مس ، وترجعه عن هذا الغى الذى تورط فيه أو لعلها تشفيه من هذا الجنون الذى ساوره .

ونام فى تلك الليلة خائفا وجلا تكتنفه الهواجس وتصطرع الأوهام فى رأسه ، ولكنه لم يكد يلقى بجسده المحموم على الفراش حتى حدث ما لم يكن فى الحسبان ، وما لم يكن يخطر لمخلوق على

بال ، فقد سمع صوت سيارة تقبل من بعيد على التفتيش ، ثم تقف بعد قليل أمام داره وعرف من صوتها أنها سيارة الباشا ، فهم ان يستقبل من فيها ، ولكنه فجأة سمع نقرا هينا على باب غرفته . ثم رأى الباب يفتح على مهل وتسبق الداخل رائحة عطر جميل لا عهد له بها ثم رأى شيئا ذهب بلبه ، رأى الفتاة التى يحبها .. ابنة الباشا نفسها . تدلف من الباب على مهل وقد انعكس ضوء القمر الداخل من النافذة على ذلك القوام الفارع اليانع والوجه المشرق القسمات فزاده بهاء وفتنة . وسمعها تناديه باسمه ولكن فى صوت يشوبه الكثير جدا من الحذر والخوف والاضطراب وقبل أن يغادر الفراش كانت قد أقبلت عليه وجلست بجواره قائلة له : « لا تدهش لهذه المفاجأة فان الحب لا يعرف هذا السخف الذى يسمونه الفوارق والطبقات • وقد أحببتك مذ رأيتك فى الحديقة رغم ما أنت فيه وعليه من فقر وخشونة . وما أخالك الا كذلك . فأسرعت بالمجيء اليك فى هذه الليلة . وفى هذا الوقت المتأخر من الليل . راجية أن تمد يدك لأبى . وما اخاله يرفض لك طلبا . ما دمت أنا قد قبلت هذه اليد راضية » •

قالت ذلك ثم صمتت قليلا لتستأنف حديثها اللذيذ العذب الذى يشبه الأحلام ولكنه لم يصدق هذا الذى يرى ، ولم يصدق هذا الذى يسمع . فقام الى علبة ثقاب كانت على حافة النافذة وأشعل المصباح الزجاجى الذى بجوارها فأنار الغرفة ثم التفت اليها متابعا الحديث اللذيذ العذب الذى طربت له أذناه ، ولكنها لم تكد ترى وجهه فى ضوء المصباح ، حتى انخلع قلبها رعبا وصرخت صرخة مدوية مزقت حجب الصمت ، وأسرعت تخفى عينيها بيديها المضطربتين وفرت هاربة من الغرفة لا تلوى كمن يفر من خطر داهم . وأفزعته صرختها التى هزت قلب الليل ، وهم بأن يلحق بها ضارعا بأن هذا لم يكن ذنبه . وانما هو ذنب الآباء والأمهات الذين نسوا أن الله بالمرصاد . وان الانتقام ليس من المحتم أن يكون فى الآخرة .

فقد يكون فى الدنيا أحيانا · وقد يتجاوز الجانبين الى أولادهما أحيانا اخرى ، بيد انه استيقظ فجأة من نومه الثقيل البغيض الذى كان غارقا فيه .

ولما عرف أنه كان يحلم خجل من نفسه ومن هواجسه هـذه التى تسخر منه حتى فى النوم . وكأن الصرخة كانت ما تزال تدوى فى اذنيه فأنصت اليها مخوفا فزعا . ولكن ترى هل صورته مفزعة الى هذا الحد المخيف . ؟ بغيضة الى حد انها تبعث بكل هذا الرعب فى النفوس . ؟ وأراد أن يرى فعمد الى المصباح وأوقده ليرى وجهه فى المرآة وكأنما هو يراه للمرة الأولى . لذلك لم يكد يبصر أنفـه المتآكل القبيح ، وشفتيه الناتئتين وعينه التى جنحت حدقتها على جفن أحمر لزج كأنه قرحـة لا تندمل حتى اقشعر بدنه واربدت سحنته . وثار على خلق هذا الوجه المركب بالقبح . ودون أن يدرى ارسل الى هذه الصورة لطمة قوية فاذا بالمرآة تسقط مهشمة . واذا به يرتمى بجوار أجزائها المتناثرة يبكى ويعول .

وساءت حالته بعد ذلك الى حد كبير ، وضاقت الدنيا فى عينيه وحزن وقضى أياما بائسة لا يعرف كيف قضاها . وتعاقبت الأشهر . وكل الذى يعرفه هو ان هذه الأيام والأشهر التى مرت عليه كانت أثقل على نفسه واقسى على فؤاده من هاتيك الأيام البعيدة التى كانت تلقى له فيها الصدقات من خلف الأبواب ، تمتد بها الأيدى كى لا تراه العين ؛ وقد حاول ما استطاع أن يبعد عن نفسه هذه الخواطر السوداء ، أو هذا الجنون الذى طاف به وهو حب تلك الفتاة وكان مجرد التفكير فى أنه يحبها ، يشعل النار فى كل جارحة من جوارحه فما يبلغ من محاولته أكثر من أنه يمكن لهذا الحب من قلبه حتى غدا شغله الشاغل ــ والحديث الذى لا ينقضى بينه وبين نفسه .

واخيرا فكر فى شىء يريحه من هذا العذاب فلم يجد غير الانتحار . فحسبه ما لقى من دنياه منذ كان . بيد انه كان أجبن من أن يقدم على الانتحار ، وكثيرا ما كان يثير هذا الجبن فى نفسه الألم والحزن

فلا يجد مسعفا غير الدموع فيظل يبكى ويبكى طوال الليل . وما أطول لياليه وأكثرها . وأخيرا اهتدى الى فكرة أخرى وهى أن يترك خدمة هذا الباشا الذى يحب ابنته ، ويضرب فى بلاد الله الواسعة ، وبذلك يبتعد عن هذا التفتيش الذى أصبح كل شىء فيه يذكره بقبح خلقته . ودمامة وجهه وبشاعته لأن كل شىء فيه يذكره بالوجه الفاتن الساحر الذى يحبه .

وسكن قلبه الى هذه الفكرة ، فحزم الأمر على تنفيذها ، بيد أنه تريث قليلا حتى يؤدى الأمانات الى أصحابها ، ويجنى محصول العام الذى أوشك أن ينتهى ويسلم ثمنه الى صاحبه الذى أقامه أمينا عليه ، ثم ينبئه باعتزامه على السفر رضى أم لم يرض ، أذن أم لم يأذن ، ومرت أسابيع أنهى خلالها كل هذه المهام . وذهب الى الباشا وقدم له حسابات العام ، وكم كانت دهشة الباشا عندما وجد أن ايراد هذا العام الذى كثرت الشكوى فيه من الآفات الزراعية أضعاف ما كان ينتظر أو يتصور ، لذلك لم يسعه الا أن يمد يده مرة أخرى الى على أفندى شاكرا له هذا المجهود ، وقبل أن تتهيأ له الفرصة ليقول شيئا ، كانت يد الباشا تمتد اليه بالعطاء الجزل ودهش على افندى للبادرة الكريمة فانعقد لسانه حينا ، ثم جاهد نفسه جهادا مريرا حتى قال :

ـ شكرا ياسيدى ، وأرجو اعفائى من هذا المال الذى لا أستحقه كما أرجو .

وقبل أن يتم انفرجت أسارير الباشا وهو يقول :

ـ انك يابنى تستحق أكثر من هذا ، انك تستحق كل ما أنا فيه من ثراء ونعيم ، فلولا فضلك لابتلع هذا التفتيش الكبير . كل ما املك ولم يعطنى شيئا .

فقال الشاب وهو يعالج النار التى تعتمل فى قلبه :

ـ ولكنى ...

فقاطعه الباشا قائلا :

ـ ولكنى اعددت لك هذه المفاجأة السارة ، أعددت لك هذه الألف من الجنيهات لتقدمها صداقا لابنتى الوحيدة .

فذعر الشاب كمن لدغته عقرب ، وأذهلته المفاجأة ، التى نزلت على قلبه نزول الهول الصاعق . فقال والأسى يذبح قلبه ذبحا :

ـ انك تسخر منى ياسيدى ، وانا لا أستحق منك غير الشفقة والعطف .

ـ اننى جاد يابنى .

ـ لقد اشقى القدر واحدا ، فلا تشق أنت الآخر ،

قال ذلك ثم أجهش وجحظت عينـــاه ، واربدت سحنته وأمعنت فى الدمامة والقبح وهو يتمتم :

ـ ان الناس تفر من قبح خلقتى فكيف تقبلنى ابنتك ؟ .

ونظر الباشا الى سحنته التى انقلبت فجأة حتى غدا وجهه مروعا مخيفا ، فحول عينيه عنه ، لأنه لم يقو على التطلع اليه ، ولكنه ربت على كتفه وهو يقول مغمض العينين :

ـ ستسعد بك ابنتى يابنى ، لأنها لن ترى غير قلبك وروحك .

ففغر الشاب فاه وهو يقول مأخوذا :

ـ اهى ؟ . .

فقاطعه الباشا وهو يجفف دموعا كانت قد انحدرت على خده وبلغت شاربه فاستقرت عليه :

ـ أجل يابنى : هى عمياء . . ؟

القربان

كان كل شيء فى تلك الليلة ساهما واجما ، كأنه ينتظر حدثا من الأحداث ، فالقمر مكتئب يرسل نوره فى شحوب ، ورءوس الأشجار مائلة فى وحشة رهيبة كأنها الأعلام المنكسة فى يوم مشئوم ، والزنابق منكفئة أغصانها على الأرض كأنها لحى القسيسين والرهبان ، وقد انكبوا على المذبح يضرعون الى الله فى صمت ، والورود أوراقها باردة باهتة تسيل عليها أنداء الليل المرتعش كما تسيل الدموع على خدود العذارى فى ليالى الوحشة وساعات الآلام . والنسيم يروح ويجيء بين هذا كله معتلا مريضا كأنه أنفاس مصدور ، وكلما لامس القصر الحزين ، وقارب الشرفة ، ومست انفاسه تلك الغلالات السوداء المنطرحة على كتفين عاريتين فى لون العاج ارتد مهموما ووقف فى صمت يتأمل تلك العيون تسح الدموع وهى التى لم تكن تعرف غير الضحك والابتسام ، ويصغى النسيم فى انتباه الى توسلات نبيل من النبلاء مكبا عند قدميها يتضرع ويرجو ويتوسل وكلما انحدرت نقطة من الدموع الحارة المنسابة من عينيها وسقطت على وجه النبيل ولفحته حرارتها ، التهبت توسلاته ، واستعرت تضرعاته ، وراح فى استجداء يرجو ويلح ويتوسل ، وهى تأبى وترفض .

ــ ولكنى ياسيدى لا أستطيع تلبية دعوتك .

ــ انها ليست أكثر من سهرة راقصة تقام فى قصرى ويشرفها صاحب الجلالة .

ــ اعرف ذلك ياسيدى الأمير .

ــ وتعرفين أنه لاشيء يسر جلالته سوى رؤيتك أنت .

ــ أعرف .. أعرف ياسيدى .. وأعرف أن جلالته لن يشرف الحفل الا اذا تأكد من قبولى دعوتك .

ــ وتعرفين أنه أوفدنى اليك هذه الليلة برسالة منه .

ولمعت عيناها من رهبة النبأ ، وارتدت ذاهلة لا تطرف ، بينما نهض الأمير « بونياتوفسكى » منهوكا خائر القوى ، وجفف العرق المتصبب من جبينه المترهل وأصلح هندامه ، ثم أخرج رسالة زرقاء كبيرة ، توج مظروفها بصورة نسر كبير وكتب تحتها بخط بارز : « مكتب صاحب الجلالة الأمبراطور » .

ثم فض الرسالة وراح يقرأ فى اهتمام :

« لم أر غيرك ، ولم أعجب بسواك ، ولا أرضى الا بك . أنتظر جوابك السريع ، فلعل فيه دواء لنافد الصبر .. تعالى .. تعالى .. سأحقق لك آمالك .. سيكون لوطنك مقام ان رحمت قلب المعذب » .

ثم طوى الرسالة واسترد أنفاسه ووقف فى صمت يستمع الى هذه الكلمات التى تخرج مرتعشة من بين شفتيها المقرورتين :

ـ ومع ذلك أرفض دعوتك ياسيدى .

ـ انها من أجل الوطن ياماری .. ان شعب بولونيا الذى يرسف فى قيود الاستعباد ، واذلته جيوش روسيا ، وأذاقته هذا الهوان ، ليطمع فى نيل حريته على يديك . ان بولونيا بأسرها تتطلع اليك .. تنتظر كلمة منك .. ان أولئك الأوغاد الذين اغتصبوا وطننا العزيز ، وانتهبوا حريتنا المقدسة ، ليس من سبيل الى ردهم سوى الامبراطور الذى اتاحه الله لينقذ هذا الوطن الذليل .. ان كلمة واحــدة منك ياماری كفيلة بأن تكفكف عبرات الملايين من البشر ، وترد الى هذا الوطن حريته ، وتعيد اليــه حياته .. ماری .. اذكرى بولونيا العزيزة .. اذكرى الوطن الذى أنت له أم وأخت وزوج .

وجففت عبراتها المنسابة ، ومسحت على وجهها الحزين وتمتمت بشفتين مرتجفتين :

ـ خير لهذا الوطن أن يموت ياسيدى من أن تضعوا على جبينه اكليلا من العار .. !

ـ ليس عارا ما تقدمه امراة لوطنها من تضحيات .

ـ حتى ولو كانت قاسية لا تحتمل ؟



« ان كلمة واحدة منك يا مارى كفيلة بأن تكفكف عبرات الملايين من البشر ° وترد الى هـــذا الوطن حريتـــه »

ـ حتى ولو كانت قاسية لا تحتمل !

وانسابت دموعها غزيرة بكماء على وجهها ، وتمتمت :

ـ حتى ولو كان الشرف ياسيدى ؟

وصمت الأمير ولمعت عيناه ، وتمتم فى صوت خفيض لايبين :

ـ حتى ولو كان الشرف ياماري .

ثم جفف دموعه الصامتة ، وقال لاهثا يستطرد :

ـ لن تكوني ياماري اول سيدة تقدم على هذه التضحية . أن استير لم تسلم نفسها لاجشويرش خضوعا لعاطفة الحب ، فانالرعب الذى كان يستولى عليها ، حتى لتكاد تقع فاقدة الرشد ، كلما نظر اليها لدليل على أنه لم يكن للحب نصيب فى هذا الزواج ، ولكنها قدمت نفسها ضحية لقومها . وكان لها فى النهاية مجد انقاذهم ، فهل يتاح لنا ياماري ان نتحدث عن مجدك وسعادتنا بمثل ما نتحدث به عن مجد « استير » وسعادة قومها ؟ .

ـ ولكن « استير » لم يكن لها غلام ياسيدى فيعيش منكس الجبين طوال حياته .

ـ وسيعيش هذا الغلام منكس الراس فى وطنه المستعبد ، ذليلا فى بلاده يقاسي صولة الغاصب ويستجدىالعدو أملاك آبائه واجداده.

قال ذلك وسحب عصاه وانصرف ، ولكنه لم يكد يبتعد قليلا حتى عاد اليها مسرعا وجرها من يدها الى يمين الشرفة ، وقال وهو يشير بعصاه الى مدخل القصر .

ـ انظرى ! انهم ياتون اليك من اجل الوطن . أنظرى ، هــذا بونيالوفسكى رئيس مجلس الوزراء ، وهذا هو فاليوفسكى رئيس مجلس البلاط ، وهــذا هو رئيس مجلس الشيوخ ، وهــذا هو فيتالوفسكى قائد الجيش ، وهؤلاء شيوخ بولونيا ونوابها . انهم جاءوا ليعقدوا مجلسهم الأعلى فى دارك ياماري .. ليتوسلوا اليك باسم الوطن الذليل والحرية المستباحة ؛ باسم بولونيا المنكودة .. باسم ابنك ياماري ، ابنك الذى سيكون يوما ما جنديا من جنودها ،

وهم بأن يقول شيئا آخر ، ولكن بهو قصر « فاليسكى » كان قد اضاء فجأة . فتركها وانصرف ليلحق بأعضاء المجلس الأعلى الذى هو عضو من أعضائه . ووقفت هى فى الشرفة لاهثة الأنفاس تكفكف عبراتها حينا ، وتنظر الى السماء حينا ، وكأنها تنتظر معجزة من المعجزات . ولما لم تجد غير الصمت المريب الذى يكتنفها تسللت حافية القدمين تهبط الدرج فى حرص وحذر حتى بلغت البهو الكبير الذى انعقد فيه المجلس البولونى الأعلى ، فوقفت خلف حجاب ترى وتسمع وتنتظر مصيرها .

ولم يدم انعقاد المجلس الأعلى طويلا ، لأن الماريشال « دروك » ذلك الداهية الذى يطمئن اليه الامبراطور فى الملمات ، واتخذه كاتما لأسراره ، طلع على المجلس فجأة بقوامه الرشيق وزيه الأنيق . وبعد أن حيا التحية العسكرية وقف وقال : « ان حضرة صاحب الجلالة مولاى الامبراطور ليعد وعدا صادقا بأن يغرس بيده الكريمة بذرة الحرية فى الوطن البولونى ، وأن يكره روسيا على أن تنزل عما اغتصبته من ارض البلاد . على أن تردوا الى جلالته ما سرقته منه احدى البولونيات فى برونى » .

قال الماريشال ذلك ثم حيا المجلس الموقر وانصرف دون ان ينتظر قراره ، وعلى أثر انصرافه مباشرة وقف الشيخ «بونيالوفسكى» رئيس مجلس الوزراء وتلا القرار الآتى :

« ان أعظم الحوادث قد يترتب على أصغر الأسباب ، ولقد كان للنساء فى جميع الأزمنة سلطان كبير فى تسيير سياسة العالم ، وفى حل المشكل من الامور ، تلك حقيقة يشهد بها تاريخ العالم القديم والحديث .

وستظل النساء من أقوى العوامل ما دامت الشهوات متسلطة على ميول الرجال . أن الكونتيس مارى فاليسكى امرأة ، وطبيعة المراة لا تسمح لها بأن تخدم فى مواقف الحرب والصدام ، بيد أن هناك من التضحيات ما تستطيع أن تقدمه ، وما يجب أن تلزم نفسها

به الزاما . وان كان من نوع قاس لا يحتمل ، ولكن فى سبيل حرية الوطن يهون كل شىء » .

ولما جلس الرئيس سأل شيخ هرم يناهز السبعين عن نوع التضحية التى يرغب المجلس فى أن تقدمها زوجه .. فقال له الأمير ، وهو يربت على كتفه ، وأنامله تعبث بسلسلة ذهبية زان بها الشيخ صدره :

ـ انها ليست أكثر من أن تصحبنا غدا الى سهرة راقصة يشرفها الامبراطور ياسيدى الكونت .

فاستلقى الزوج الفاضل ضاحكا ، وقال مبتهجا والفخر ملء اهابه :

ـ أجل ! أجل ! وسأنتقى لها بنفسى ثوب السهرة الملائم ياعزيزى الأمير .

وسمعت مارى ، وهى تنتحب خلف الستار الاحمر الذى زين به صدر البهو ، ما قاله زوجها الشيخ الذى كانت تعقد عليه الكثير من الآمال ، لأنه كان المرفأ الذى منت نفسها بأن تلتجىء اليه ، والحصن المنيع الذى كانت تريد أن تلوذ به وتحتمى فيه ..

ولكن أنى لحصن قديم مهدم أن يصمد فى وجه ذاك العروش ومدوخ الشعوب وقاهر النمسا ومذل ايطاليا وممزق ألمانيا ومشتت الملوك ؟! انى لشيخ هرم جاوز السبعين أن يحول دون رغبة صاحب الجلالة الامبراطور وأن يكبح جماحه ؟ وكفكفت دموعها واستطردت: أجل ! متى كان لغراب كسيح أعرج أن يرد « النسر » اذا هفهف بجناحيه على حمامة جريحة مهيضة الجناح ؟!

وهمت بأن تقول شيئا ، ولكن صوتا خافتا انبعث فى أذنيها من بعيد ، وكأنه صوت الكمان الحزين ترجعه أصداء الليل ، فأسرعت مهرولة الى مصدر الصوت . انه طفلها العزيز يبكى ، يبكى هو الآخر .. واقبلت على أرجوحته مذعورة واحتضنته ، وظلت به حتى هدأت ثائرته ونام مطمئنا بين ذراعيها . ومن ثم جلست هى أمامه

تنظر اليه وتتأمله بعين أم .. ورات فيما رات شيئا غريبا لم تره من قبل : راتُ جبينا مشرقا وضاء يتلألأ صفاء وطهرا كأنه الهلال الوليد . فعز عليها ــ وهى أمه ــ ان تلطخ بالسواد هــذا الجبين المتهلل ، وتسمه بميسم العار الى أن يموت .. أن الموت أحب اليها من هذا الذى يدعونها اليه ..

وردت عينيها عن جبينه وكفكفت دموعها فى صمت .. ولكن .. ولكن ماذا ياماري .. ؟ ولمعت عيناها وتمتمت شفتاها وهى منكسة الراس كمن ينظر الى شيء ثمين عند قدميه .. ولكن لن الوث جبين ابنى بيدى حتى ولو قدمت حياتى قربانا على مذبح الأمومة .. وتموتين ..؟ وسأموت ما دامت قوى الأرض عاجزة عن أن تنقذ شرف امرأة ، وتبقى على طهارة طفل . وليهنأ النسر بعد ذلك اذا اراد . ولكن بجيفة من الجيف .. ! وابنك .. ابنك ياماري أتحرمينه ثديك الحنون .. وصدرك الذى يضمه .. وثغرك الذى يقبله .. ؟ أترضين له اليتم والحرمان وانت تعلمين أن لا أحد له غيرك ؟ وأن أباه الهرم سيموت لا محالة ان لم يكن بعد شهور أو أسابيع فبعد سنوات معدودات ... ؟ وحانت منها التفاتة ثانية الى وجه الطفل، ورات جبينه الطاهر المتهلل ، وثغره البريء الذى لاينى عن الابتسام حتى فى النوم ، وذراعيه الصغيرتين وكأنهما جناحا ملك صغير يحلق فى السماء ، فلم تتمالك نفسها ، وارتمت بجواره باكية تنتحب . وظلت كذلك الى حين . ثم تسللت من جواره لاهثة الأنفاس منهوكة القوى تجر ساقيها جرا من فرط الاعياء الذى الم بها . وارتدت ثوبا فضفاضا ناصع البياض ، ثم جاءت بشمعة كبيرة اوقدتها بجانب سرير الطفل . ومن ثم راحت تصلى . ولما فرغت من صلاتها وجدت عندها من الشجاعة ما يجعلها تتقدم فى خطى وئيدة الى سرير الطفل، وترفع عن وجهه النقاب الخفيف ، وتودعه الوداع الأخير . ولما قبلته انحدرت من عينها دمعة استقرت على جبينه ، وكانت هى التميمة الوحيدة التى تركتها الأم لابنها لتحفظه فى ساعات الوحدة .. ثم

اغلقت الباب وانصرفت تمشي على أطراف قدميها حتى لا يحس بها احد من الخدم . آملة أن تبلغ النهر دون أن يراها احد من العسس او تقع فى قبضة جندى من جنود روسيا الغلاظ الأكباد وهى تخترق شوارع فارسوفيا فى عتمة الليل .

ومشت فى غمرة الظلام يلفها سواده الذى خيم على المدينة الذليلة المغلوبة على أمرها وراحت تتعثر فى ثوبها الفضفاض ، وتتخبط بين الأنقاض التى خلفتها مدافع الروس وقنابل المغتصب . . أخذت تسير بين الأطلال رويدا فى ثيابها البيضاء كملاك يسير بين القبور ليبارك جدثا طاهرا . وظلت كذلك حتى خارت قواها ، وانهك جسدها الفتى الاعياء ، فجلست بجوار سور متهدم لقصر اكلته نيران العدو لتستريح قليلا ، ثم تقطع بعد ذلك الطريق الى النهر . بيد أنها لم تكد تطمئن الى مكانها الذى جلست فيه حتى رات شبحا يتخبط فى الظلام وتلفظ عيناه شيئا كأنه الشرر فى الليل ، وينفلت مذعورا ذاهلا كأنه يريد أن ينجو من خطر عظيم وما أن اقترب منها الشبح ورآها حتى ارتمى فى أحضانها باكيا معولا يمسح على صدرها بوجهه الذى غمرته الدماء المتفجرة منه وهو يردد فى وجل وخوف : النجدة . . النجدة ياسيدتى . ورأت مارى أمامها فتاة ممزقة الثياب قد قد قميصها من قبل حتى كشف عن صدرها الذى تتفجر منه الدماء كما تتفجر من صدغيها ووجهها الذى مزقته ضربات سوط قاس . وقالت الفتاة وهى تدفع مارى أمامها مذعورة خائفة :

ـ هيا .. هيا لنهرب يا سيدتى . ان جنود القيصر فى أعقابنا .

ـ وماذا يريدون ؟

ـ انهم يتصيدون نساء فارسوفيا فى الليل وفى النهار . ان دماء البولونيات حل لهؤلاء الأجلاف . ما دامت أحذيتهم الثقيلة تدق ارض الوطن ! . . هيا . . هيا بربك لنهرب . ان هؤلاء الأوغاد يتضورون جوعا ولا يأكلون غير اعراض النساء . . انهم لا يفرقون

بين ما أحل للناس وما حرم عليهم .. انهم كالثعالب تتدلى ألسنتهم اذا طالعتهم جيفة من الجيف .

ومسحت الفتاة وجهها الذى أثخنته الجراح وقالت :

ـ كنت ذاهبة الى النهر لآتى بجرعة ماء لأمى التى تموت ، بعد ان حطمت قنابلهم خزان المياه ، فقابلنى جندى من جنودهم كان به سعار من الخمر فانقض على . وهم بأن يغتصبنى اغتصابا . ولما دافعت عن نفسى مزق ثيابى بأظافره الخشنة ومزق جسدى بسوطه الذى لا يرحم . ولما كلت ذراعه وقف ليستريح فانتهزت فرصة غفلته وهربت . انهم أوغاد يا سيدتى .. انهم غلاظ الأكباد لا يرحمون .. انهم .. وزمت الفتاة شفتيها ، وجحظت عيناها ، ولاذت بأحضان مارى ترتعد وتقول : انه مقبل ياسيدتى ها هو ذا الوحش .. احمينى ياسيدتى ، فليس فى جسدى موضع لسوط جديد .

وضمتها مارى الى حضنها وجلست بها فى جانب السور المتهدم، واختفت هى الأخرى بجانبها وراحتا تنظران فى وجل الى الشبح الذى يقبل متخاذلا لا يكاد ينقل قدما عن قدم الا بجهد . وما كاد يقترب منهما ويصبح على بضع خطوات حتى صرخت الفتاة :

ـ انها أمى العجوز ، انها جاءت لتبحث عنى .. خافت على شرورهم . وهمت بأن تندفع اليها ، بيد أنها ارتدت سريعا الى احضان مارى لاهثة الأنفاس مربدة السحنة تهمس فى وجل : انه الوغد .. انه الوغد يقبل خلفها بحذائه الثقيل . اخشى أن يمسها بسوء .. أن ينقض عليها ، ان .. ولم تتم لان طلقا ناريا هتك ستر الظلام وأردى الأم العجوز تتخبط فى دمائها وهمت الفتاة بأن تصرخ . ولكن مارى كتمت انفاسها بيدها حتى لا يفطن الى مكانهما .

واقترب الجندى المخمور من المراة العجوز المنطرحة على الأرض، وركلها بقدمه ، ولما ألفاها جثة هامدة ضم بندقيته الى صدره مغتبطا لأنها لا تخطىء الهدف . ومن ثم واصل السير فى الليل يدق بحذائه دقا منتظما حتى اختفى . وقامت الفتاة ومعها مارى فجرتا الجثة

جرا حتى وضعتاها بجانب السور . وجلست الفتاة بجانب أمها تنتحب حينا ، وتفكر حينا آخر .. أين ذهبت الفتاة التى كانت معها بعد أن دست فى يدها عقدا ثمينا كانت تزين به صدرها ؟!

وابتعدت مارى وأخفاها الظلام . وكل همها أن تبلغ النهر قبل أن تقع فريسة لبندقية من بنادق الروس التى لا تخطىء الهدف . وليس ذلك لأنها تخشى الموت أو ترهبه . بل لأنه يعز عليها — وهى ابنة بولونيا المجيدة التى عرفت منذ القدم كيف تذود عن حياتها — ان يجرحها ظفر وغد من أوغاد القيصر . وحانت منها التفاتة فى الليل الى ثوبها الأبيض الفضفاض فألفته ملطخا بالدماء . فنظرت اليه طويلا وكأنها لم تر من قبل هذه الدماء .. ان هذه الدماء دماؤك انت .. دماء بولونيا العزيزة . بعضها فجره السوط وبعضها فجره الرصاص .. ان تلك العجوز التى مزق جسدها الرصاص أمام عينيك هى أمك لأنها بولونية ، وتلك الفتاة التى ألهب جسدها السوط هى اختك لأنها ابنتها .. انك تشفقين على جسدك أن يجرحه ظفر وغد من اوغاد القيصر ، ولا تشفقين على هذه الأجساد التى يمزقها الرصاص تمزيقا وتلهبها السياط الهابا ..

انك ذاهبة الى النهر لتلقى بنفسك فيه .. لتنتحرى .. لتموتى .. لتقدمى حياتك قربانا لابنك الذى تخشين أن يجلل جبينه العار .. فهلا فكرت فى جبين بولونيا الذى تطؤه نعال القيصر وجنوده ؟ .. هلا أشفقت على هذا الجبين الذى داسته أقدام السكارى والأجلاف الذين اغتصبوه واستعبدوه وانتهكوا حرمته وسلبوا حريته ؟ .. أأنت من الأنانية يامارى بحيث تقدمين حياتك قربانا لطفل لم يتجاوز الثانية من عمره ، وتضنين بها على شعب بأسره ، على أمة ذليلة تتطلع اليك .. على بولونيا .. بولونيا التى أنجبتك وأنجبت آباءك وأجدادك وانجبت هذا الطفل ؟! .

ومدت أناملها المرتعشة ، وجففت دموعها التى انسابت غزيرة بكماء على وجهها الشاحب المقرور ، وهمت بأن تصغى ثانية الى هذا

الضمير الذى جعلته الدماء يصرخ فى أعماقها . بيد أنها رأت فى الظلام نورا ضئيلا يتمدد أمامها على الطريق . وكأنه الخيط الأبيض على رقعة سوداء مفرقة فى السواد . وما أن تأملته حتى عرفت أنها مركبة البريد تمر بها فى الليل . فهرعت وأمسكت بالخيل حتى وقفت ، ودون أن تقول شيئا نزعت قرطها ودسته فى يد الحوذى الذى كان يتعالى شخيره وهى تقول :

ــ معذرة ياسيدى ! أريد أن أصحبك الى ميدان البلدية .

فأفسح لها الحوذى مكانا بجواره وهو يبحث فى صديريته عن مكان أمين يحفظ فيه القرط .

وأمام ردهة الأعياد الملكية وقفت فتاة ذليلة فى الثامنة عشرة من عمرها تسأل أحد الحراس أن يقودها الى حضرة صاحب الجلالة الأمبراطور ! .

المذياع الحكيم

كانت الساعة الكبيرة معلقة فى صدر البهو الفسيح ، أمام المرآة العريضة التى تحف بها الأزهار من الجانبين ، لذلك فأنت أينما وجهت عينيك ، أو أدرت وجهك استطعت أن ترى الساعة ، تراها من أمامك ، وتراها من خلفك ، وتراها أيضا ان أردت عن يمينك أو شمالك ، لأن المرآة قد امتدت ففاضت على جانبى البهو الفخم الفسيح ، وهذا ما ضايقها أشد الضيق فى هذا النهار الكريه ، وسبب لها الكثير من المتاعب .. انها تود لكل شيء أن ينقضى فى هذا اليوم الأسود ، حتى عمرها نفسه . ولا ينقضى هذا النهار ، أو تبلغ هذه الساعة اللعينة الثامنة مساء ، ومع ذلك فكل شيء حولها يدل على البقاء ، ما عدا هذا النهار المشئوم الذى تركض فيه شمسه فى رعونة وطيش نحو الأفق تماما كما تركض عقارب هذه الساعة ركضا مرعبا مخيفا نحو الثامنة مساء .. وهى تستطيع أن تتصور كل شيء ، الا أن تبلغ هذه الساعة اللعينة الثامنة من مساء اليوم ، فكأنت لاتنى تنظر اليها ، وكلما رأتها قطعت شوطا ، انهلع قلبها ، وشحب لونها ، وكادت تسقط من شدة الاختناق والضيق ! .

وظلت على ذلك زمنا لا تعرف هى أطال أم قصر ، لأنها قضته فى احدى الغرف بعيدة عن هذا البهو ، الذى تدق فيه الساعة المنتظمة دقاتها المتواليات . بيد أنها بعد حين عادت ثانية الى البهو لترى الساعة عسى أن تكون عقاربها النزقة قد كفت عن هذا الهذيان والطيش ، وشد ما كانت دهشتها عندما وجدت العقارب الثلاثة مجتمعة قد تآمرت عليها هى الأخرى ، وقطعت دورة كاملة من دورات الساعة .

ووقفت حائرة زائغة البصر كهرة جميلة فى قفص عرفت بغريزتها أنه قد حان حينها ، وأن موعد قتلها سيقع عندما تلتقى عقارب هذه الساعة على الثامنة مساء .

وثارت ثائرتها عليها وهى تزحف بها نحو العدم بخطى ثابتة متزنة ، وهمت بأن تحطمها لتستريح .. ولكن ان هى حطمتها لتقف دورانها ، أتستطيع أن تحطم الزمن لتقف دوران الفلك ؟ . وتراجعت عن الساعة خجلة من نفسها ، ومن تفكيرها هذا المضطرب ، وذهبت الى مقعد مريح تفكر تفكيرا عميقا حينا ومنتظما متزنا فى أكثر الأحيان .. انها هى التى خلقته هذا اليوم خلقا فى دنياها ، وهى بنفسها التى حددت الثامنة من مسائه موعدا للقاء فى هذا الحرم ، حرم الزوجية المقدس .. ففيم كل هذا الضيق ، وهذا الاضطراب والحيرة .. حقا انها كانت غير مشتركة اشتراكا فعليا فى بواعث هذا الجرم ، فقد كانت تظن فى بادىء الأمر أن المسألة مسألة لعب ولهو وتزجية فراغ ، وما كانت لتظن أبدا أنها تلعب بالنار ، وأن هذه النار ستحرقها .

كانت تقف فى شرفة بيتها ، كما تقف كل زوجة فى الصباح أو المساء ، وكانت شرفته لسوء الحظ تقابل شرفتها ، ورأته أول مرة فلم تعره اهتماما ، ولكنه حياها فى أدب جم واحترام أثلجا صدرها ، فوجدت أنه من الذوق رد التحية ، فردتها ، ثم غادرت الشرفة وأغلقت بابها ، ولكنه التقى بها مرة أخرى عفو المصادفة فى الطريق فحياها ، وبأدبه الجم نفسه واحترامه الكبير ، فجاملته أيضا برد التحية ، وما كانت لتعلم أن فى بعض المجاملات ما يسبب الشقاء ويعود بالخسارة على المجاملين ، وما كانت لتظن أبدا أن مثل هذه التحية العابرة ستجر الى ذلك الذى يسمونه حبا لا يعيش الا فى الظلام ، لأنه بين امرأة متزوجة وشاب أعزب .. ومع ذلك فهى لا تنكر أنه فعل المستحيل ليظفر بها . وانه استعان بعدة أسلحة حادة الاغراء ، غير تلك التى زودته بها الطبيعة من مال وجمال ،

وشباب ملتهب النزعات والرغبات ، وظل سائرا خلفها بتوسلاته ودموعه الغزيرة التى يطرب المرأة مرآها منحـدرة من عينى رجل يحبها . حتى ورطها أمس الأول وجعلها دون وعى تضرب له موعدا، هو الثامنة من مسـاء هذه الليلة التى سيتغيب فيها الزوج عن المدينة لأمر مهم يتصل بأسباب حياته ورزقه .. انها فى عرف نفسها قدر لها الموت منذ هذه الليلة لا محالة ، انها ستموت كزوجة ، وان كانت ستظل تعيش كامرأة ، وهى لا تريد أبدا أن تقضى حياتها على هذا الوضع .. انها تستطيع أن تتصور كل نهاية لزوجة ، الا هذه التى تذبح فيها الزوجة زوجها « بموسى » الاثم والعار .

ان هذه « الموسى » التى هى من حرير ، لأشد خطرا وأكثر شرا من قنبلة متفجرة تبيد الزرع والنسل وتأتى على الدنيا .

ان القنبلة تذبح العنق ، وهذه تذبح الشرف ، وشتان ما بين الذى يعيش مذبوحا ، والذى يموت مذبوحا .

ان الشجرة التى تفرط بثمارها ، لغير الرجل الذى تعهد رعايتها، لخير لها أن تجتث ، من أن تعيش مستباحة الظل ، ملوثة الأغصان.

وهى لا تريد أبدا أن تموت ، وكيف يموت هذا الشباب ، كيف تذبل هذه الأزهار ، وتذوى هذه الثمار ، على هذا الغصن الرطيب ، وهو لما يطو بعد من سنى حياته الثامنة عشرة .. فخير لها اذن أن تبعث اليه بأن لا يجىء .. ومن الخير أن لا يجىء فعلا .. بل من الخير أن تقطع كل علاقة لها به .. وأن ترد اليه صورته هذه اللعينة التى تغريها دائما بالأكل من الشجرة .

وقامت عن مكانها ، ودعت الخادم ، وأمرتها أن تنتظر ، ودلفت مسرعة الى مكان قصى اعتادت أن تخبىء فيه أسرارها ، وأخرجت رسالة زرقاء معطرة كان قد بعث بها اليها من زمن غير بعيد ، مع صورة فوتوغرافية له . وهمت بأن تمزقها ، وتلقى بها من النافذة القاء حاقدا بيد أنها رأت أن ترد الهـــدية الى مهديها ، فقد قيل لها يوما ، ان الهدية اذا القيت فى مستنقع آسن . لخير لمهديها من أن

ترد اليه ، وفتحت الرسالة وألقت عليها نظــرة ، ملؤها التحفز والسخرية فاصطدمت عينها بكلمة ، أو كلمات كانت لم تقرأها ، أو خيل اليها أنها لم تقرأها ، فرجعت اليها ، واذا بشيء لا تعـرفه يدعوها لأن تقرأ الرسالة من أولها ، واذا بهذا الشيء نفسه يلح عليها فى أن تقرأ الرسالة مرة أخرى .. واذا بالكلمات التى فيها جديدة على عينيها ، والعبارات التى انتظمت سطورها تتراءى لها كباقة جميلة منسقة ، راح عطرها يتسرب شيئا فشيئا الى نفسها الثائرة، فيهدهدها ،، ويعيد اليها الكثير من الأمن والاطمئنان الذى كانت قد افتقدته منذ أول النهار .. واذا بها أيضا تعرف ما لم تكن تعرف.. تعرف أن فى الدنيا أشياء مجهولة ، لو أتيحت للانسان لخلقته خلقا جديدا ، وجعلته ينعم بسعادة جديدة غير هذه التى تعرف .. لولا هذه البدعة التى خلقتها جماعة من الصم والعمى والبكم ، وذوى العاهات ، والتى اصطلحت فيما بينها على أن تسميها « الأخلاق » .

ان فى الحياة الدنيا جنة مخلدة ، خلود تلك الجنة التى حدثنا بها أولئك العجزة ، فلماذا لاننعم بها .. ؟ ولماذا خلقت اذا كانت حقا محرمة علينا .. ؟ . لماذا نخاف الشقاء الذى يطاردنا فى كل مكان وفى مقدورنا أن نطرده بأن نلوذ بتلك الجنة ، وفيها اللحظة الواحدة ، لا تقوم بدنيا ، ولا تثمن بعمر ، بل ولا تحفظ فى سجل ، ذلك لأن سجل الأزل نفسه لا تتسع صفحاته لكل ما حوت هذه اللحظة من هناء ؟ .. وواصلت القراءة .. ان جمالك هذا الخالد الفذ ، لم يخلق أبدا عفو المصادفة ، وانما خلق ليكون ريحانة من رياحين تلك الجنة .. اننى أهيب بك — وليس هذا من أجلك — ولا هو أيضا من أجلى .. وانما من أجل تلك السعادة التى تنتظرنا .. انه يعز على أن أقتل بسلاح أنت نفسك مقتولة به لا محالة .. ولو أنى قتلت وحدى وبقيت تلك الخميلة ، وارفة الظل ناضجة الثمار تفيء على الناس بالجمال والفتنة ، لهان الأمر ، ولذهبت أنا الى الجحيم .. أما أن أقتل أنا وتبقى الخميلة فى تلك الصحراء الجرداء ، تتقاذفها الرياح الهوج ، فذلك ما أهيب بك أن تفكرى فيه .

وفكرت ، ووجدت فى التفكير لذة ونشوة ، وشعرت بشىء كأنه السحر أو كأنه الخمر ، يسرى فى كيانها ، ولا سيما عندما طوت الرسالة ، فاصطدمت عيناها بصورة الشاب الجميل الذى تفيض القوة والحيوية والشباب من عينيه .

ودخلت عليها الخادم فقد طال انتظارها . فاذا بها بدل أن ترسلها فى مهمة خاصة ، تأمرها بأن تنصرف هذه الليلة عن الدار .

وانصرفت الخادم وبقيت وحدها .. وراحت تفكر من جديد وتمضى فى التفكير ، ولكن فى الظلم الذى فرضته تلك الجماعة من العجزة على الشجرة أن هى تحللت من قيودها وقدمت ثمارها لمن تحب وتهوى .. وفى تلك الموسى التى هى من حرير ، وكيف ظلموها وشبهوها بالخنجر الذى يسفك الدماء .. وفى ذلك الشاب الذى يطلب الحياة فيقضون عليه بالموت ..

فكرت فى كل هذا وندت عن شفتيها الورديتين ضحكة ساخرة .. وانصرفت خفيفة رقيقة كالنسيم ، تمشى على قدمين لو أنهما كانتا من ريش لما كانتا أخف من ذلك وبلغت البهو ، وما أن رأت الساعة حتى وقفت مغيظة محنقة من هذه الساعة التى لم تعرف فى حياتها أشد منها خبثا ومكرا .. والتى كانت للحظات فقط تركض لاهثة فى جنون ، حتى لتكاد تسابق الزمن . والآن ، ولما « أراد القلب » تقاعست وتخاذلت ، حتى لتكاد تقف عن السير . حتى هذه الساعة تتآمر على سعادتها .. ولكن لا .. فلو انقلبت هذه الساعة الواحدة الباقية الى دهر .. لسوف تنتظر ولو تآمرت الدنيا وتألبت فلن تثنيها .. ومتى حالت دنيا دون رغبات امرأة ؟

وخلصت جبينها المشرق .. من بعض خصلات فاحمة كانت تتناثر حواليه . وفكرت فى شىء يشغلها من نفسها هذه الساعة الباقية ، فلم تجد غير الحمام تتمتع فيه بمفاتن جسدها العارى الذى ستقدمه عما قريب قربانا على مذبح سعادة الدنيا ونشوتها وراحت فى البانيو كالأوزة البيضاء تلعب وتتقلب على لجين من ماء

رائق معطر ، وظلت كذلك الى أن أجهدها اللعب وانهكها الطرب . فانطرحت مسترخية الأعطاف على سطح الماء ، كما انطرح شعرها الأسود الداكن حواليها فغـدت ـ كروسالكا ـ الهة البحار عندما عشقت كيوبيد ، فضنعت له من صدرها المرمرى ، زورقا يسبح به فوق الماء ، ويطلع من عليه سهامه تحت ضوء القمر . وظلت كذلك الى حين . بيد أنها سمعت فجأة صوتا عذبا جميلا ، ينبعث من وسط الدار الخالية المغلقة الأبواب والنوافذ فارتاعت واضطربت . وأسرعت الى جسدها العارى تواريه على عجل ، لتعرف من يكون صاحب هذا الصوت الذى لم تستطع أن تميزه . فلعله يكونه .. بل لابد أن يكونه . ولا بد أن تكون الساعة قد أتت على الثامنة ، دون أن تشعر .

وخرجت مسرعة ترفل فى روب من الحرير الأزرق اللامع . وقد ألهتها العجلة عن احكامه ، فانكشف صدرها المرمرى . وراح يتلألأ لعينيها فى مرآة البهو المقابلة ، وبهرتها الأنوار . وكأنها خشيت على عينيها من باهر الضياء . فطرحت شعرها عليه . وضمته بذراعيها فى حنان وعطف . وهى تنظر الى الساعة ، وتتلفت الى مصـدر الصوت .. ووقفت وسط البهو الفسيح حائرة تنظر ذات اليمين وذات الشمال .. ان الساعة لم تبلغ الثامنة بعد .. انها ما زالت عند السابعة والنصف . والدار كما هى خالية . مغلقة الأبواب موصدة النوافذ اذن .. وهمت بأن تقول شيئا ولكن الصوت الجميل عاد فجأة فانسكب فى أذنيها انسكابا عذبا لذيذا . واذا بقشعريرة مفاجئة تغمر جسدها حتى لتكاد تهزه هزا عنيفا واذا بعينيها تلمعان لمعانا خاطفا . وبجوارحها تضطرب اضطرابا رهيبا .. انه المقرىء يتلو آيات الله فى المذياع .. ويتلوها .. أفى هذه اللحظة ؟ .. فى هذا الوقت بالذات ؟ .. وأثارتها هذه المناسبة غير الملائمة .. وضايقها هذا الصوت الجميل الذى ينسكب فى أذنيها انسكابا والذى يسرى كالمسك فى أرجاء البيت ، فيعطره باسم الله الذى هو نور السموات والأرض .. ونظرت الى المذياع ، ولأول مرة شعرت بكراهيتها له .

وحقدها عليه . لذلك اقتربت منه مربدة السحنة ثائرة النفس وهمت باغلاقه .. ورفعت يدها فى عنف لتدير مفتاحه وتخرسه ، غير أن المقرىء كان قد استرد أنفاسه وراح يرتل الآية الكريمة « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » .

وانصبت الآية الكريمة فى أذنيها انصبابا ، ونزلت على سمعها كأنها النار فوقفت مرتاعة مبهورة الأنفاس . جاحظة العينين . كأن قوة لا قبل لها بها انتزعت قلبها انتزاعا . فارتدت يدها عن المفتاح . ولكنها ظلت فى مكانها معلقة فى الهواء . فلا هى بقادرة على أن تحرك أناملها وتدير المفتاح ولا هى بقادرة على أن تعيدها الى مكانها ..

وصمت المقرىء لحظة أخرى يسترد فيها أنفاسه . وكأن لحظة الصمت هذه القصيرة الوجيزة ، التى لاتذكر . ردتها الى نفسها . أو ردت نفسها اليها . وجعلتها تفيق رويدا من الاغماءة التى اكتنفتها .. بيد أنها أفاقت منهوكة القوى ، متخاذلة الأنفاس . فهوى جسدها على المقعد أمام المذياع . وقد سبقتها دموعها اليه ، وراحت الدموع تنساب غزيرة بكماء على خديها ..

وواصل المقرىء قراءته . وأنصتت جوارحها الى ما يقول وأصغى القلب الى هذه الكلمات التى اتخذت من أذنيها سبيلا الى كيانها المضطرب فتهدهده حينا ، وتهده هدا فى أكثر الأحيان . « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا » .

وانهمرت الدموع فغمرت وجهها وانسابت كالقنوات تجرى على خدين بلون الشفق . وتنحدر متساقطة على صدر عار ، أبيض كالعاج ، مضطرب كالعاصفة ، وكذلك ظلت وقتا لم تدر أطال حتى كان دهرا ، ام قصر حتى غدا حلما . وانها درت فقط أن المقرىء ما أن تم قراءته حتى كانت الساعة اللعينة تدق دقاتها الثمانى ، فهبت مذعورة كالهرة المطاردة تجوب أرجاء الدار وتخرج من غرفة

لتدخل أخرى . وتجفف دمعة لتنسكب مكانها دمعة أخرى ، وتجلس على مقعد وثير ، لتلقى بجسدها القاء على بسط الدار .. وتكتم انفاسها حينا لتخرج من بين شفتيها زفرة ، لو انها اصطدمت بشيء صلب لصهرته وأحالته الى جمرات من نار . وظلت كذلك الى حين .

شيء واحد هو الذى حدث بعد ذلك كله ، وهو أن الطارق ظل يطرق الباب حتى أدمى أنامله فلم يجبه أحد ، ذلك لأن البيت لم تكن فيه غير امرأة واحدة ، وكانت تصلى .

الرؤية الثانية

« فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »
(قرآن كريم)

الأشخاص

ريتشارد لين : مالى كبير ؛ وأستاذ سابق فى الجامعة .
أدوارد ألـن : ضابط كبير متقاعد .

(غرفة مكتب بمنزل المستر ريتشارد لين فى « لتون » احـدى المدن الصغيرة فى انجلترا ، السـاعة الخامسة والنصف من مساء اليوم السـادس من يونيو عام ١٩٤٦ ـ المستر ريتشارد جالس الى مكتبه يكتب وبجواره عدة أوراق مكتوبة وزجاجة من النبيذ وكأس ، وأمامه على الحائط ، فوق مقعد كبير عليـه وسادة ، لوحـة صغيرة ، تحت ساعة كبيرة دقاقة ، عليها العبارة الآتية : الساعة السادسة من اليوم السادس ، من الشهر السادس عام ١٩٤٦ . وفى مكان قصى يرى الموقد تلتمع فيه جمرات خابية . وفجأة يضع القلم ويمزق آخر ورقة كتبها فى الكراسة ، وبينما يلقى بها يدق الباب فيقول دون اهتمام) :

ريتشارد : ادخل يامستر ادوارد ألن .

ادوارد : (مدهوشا) أوه ! أنت تعرف اسمى ؟! .

ريتشارد : (وهو ينهض لمصافحته) انى كنت أنتظرك ، تفضل بالجلوس ! .

ادوارد : (دون أن يجلس) انى ضابط فى الجيش ، ولكنى متقاعد .

ريتشارد : أعرف انك تقاعدت اليوم فقط .

اخذت فكرة هذه القصة عن اسطورة انجليزية قديمة

ادوارد : (وقد زادت دهشته) أظن ان الدكتور « رودن » حدثك عني .. اني أحمل منه رسالة اليك (يناوله الرسالة) .

ريتشارد : (يتناول منه الرسالة ، ويضعها على المكتب دون أن ينظر اليها) .

ادوارد : أرجو ان لاتغضبك هذه الزيارة ، غير الرسمية .

ريتشارد : لا ، انها تسرني ، فأنا لا احب الرسميات ، بل أكرهها ، واضيق ذرعا بها .. اتأذن لى أن أتناول قبعتك ومعطفك؟
(يتناول منه القبعة والمعطف ، ويضعهما على مقعد بجانب المكتب ، فى حين يجلس ادوارد) .

ريتشارد : (وقد تناول زجاجة النبيذ) هل لك فى كأس من هذا النبيذ الجيد ؟ . انها فرصة للاحتفاء بك ... (وهو يناوله الكأس) فى أى يوم نحن ؟ .

ادوارد : فى اليوم السادس من يونيو .

ريتشارد : اذن نظل نشرب ، حتى الساعة السادسة ، من اليوم السادس ، من الشهر السادس ، عام ١٩٤٦ .

ادوارد : (وهو يتناول الكأس) انها الآن السادسة تماما .

ريتشارد : (وقد نظر الى الساعة فزعا) انها ليست السادسة تماما .. والآن أخبرنى لماذا تريد أن ترانى ؟ .

ادوارد لأننى قرأت عنك مقالا فى احدى الصحف . انهم يسمونك الرجل الغامض فى مدينة « لتون » ، ولأنك الأستاذ الجامعى المثقف الذى لا يريد أن يتحدث الى أحد .

ريتشارد : هرأء .. أنا لست بمثقف ، ولست بأستاذ جامعى الآن ... ثم اني أتحدث الى كثير من الناس ، ولكنى لا أحب أن أناقشهم ، ولا احب أن أبحث الأشياء بدقة مع أحد ، لأننى لا أجد فى المناقشة والبحث أية سعادة أو لذة .

ادوارد : لعل مرجع هذا أن ليس فى هذه المدينة أناس كثيرون يصلحون للمناقشة ، فما « لتون » الا علبة جميلة ملأى بالأغبياء من الناس . انهم فى هذه المدينة لا يتحدثون الا عن الأمور التى هى أشد تفاهة من عقولهم الغبية ، واذا أنت حاولت مناقشتهم فى جد عدوك مجنونا .

ريتشارد : قد يكون هذا صحيحا ، وقد لا يكون ، فأنا لم أقابل الا قلة منهم ، وربما تحدثوا بذكاء لا بأس به ، ولكنى لم أسعد بحديثهم على أى حال .. أحب أن أعرف : أتنوى أن تعيش دائما فى « لتون » ؟

ادوارد (فرحا) أجل . أجل ! ولقد استقلت من عملى اليوم .

ريتشارد : أعرف ذلك .

ادوارد وسأكون بصفة دائمة هنا ، وانه ليسرنى أن ألقاك من وقت لآخر . وستجدنى محدثا لبقا ، يصلح للنقاش معـك .

ريتشارد : (يختلس نظرة الى الساعة واللوحة التى تحتها) لكم كان يسعدنى هذا !

ادوارد : أنا لا أفخر بذكائى ، ولكن أمقت التواضع وأعده أشد نكرا من الكبرياء . لقد ارتحلت طويلا ، وأفدت كثيرا ، وقرأت بتوسع ، وخبرت الحياة على حقيقتها ، ووقفت على الكثير من أسرارها .

ريتشارد : (وهو يبتسم) هل لك فى كأس أخرى من هذا النبيذ ؟ انه نوع جيد على ما أعتقد ! .

ادوارد : (وهو يتناول الكأس) شكرا ، شكرا (مستطردا بعد أن يشرب) وستجدنى رفيقا مسليا ، ومحدثا لا يمل .

ريتشارد : حقا ! انك تملك عقلا طيبا يامستر ادوارد ألن ، وتستعمله استعمالا حسنا ، ولكنك لن تستطيع الوصول الى السر الذى أحمله ، قبل أن أموت (يختلس نظرة أخرى الى

اللوحة المعلقة تحت الساعة . ثم يستطرد) .. اصغ الى .. سأخبرك به (كمن يتمتم) انه سيكون اعترافى .

ادوارد : (وهو ينظر اليه) يمكنك أن تثق بى (وكأنه تذكر شيئا) ومع ذلك يبدو لى أننا التقينا ، والتقينا كثيرا من قبل .

ريتشارد : (وقد تناول المسند ووضعه خلف ادوارد) ضع هذا خلف ظهرك ليريحك .

(يعود الى مكانه) نعم ؛ لقد التقينا من قبل فى مدرسة القديس انتونى .

ادوارد : (وقد تذكر) نعم .. نعم ! لقد تذكرت الآن .. سحقا لتلك اللحظات التى يخبو فيها سراج الذاكرة أحيانا .. ألست أنت ريتشارد لين منافسى الخطير الذى ربح دونى أكثر الجوائز المدرسية ؟

ريتشارد : « دون اهتمام » أجل هو أنا يامستر ادوارد . لقد كنا فى المدرسة معا ، وكنت أنا مثال الطالب الغبى ، الذى يحرص دائما على أن يجعل مقعده فى مؤخرة الصفوف . وكنت أنت تلميذا مجدا فى الطليعة دائما ، مجدا فى كل شىء حتى فى لهوك يامستر ألن .. أريد أن أسأل : أمازلت كذلك ؟! أقصد أمازلت فى مقدمة الصفوف ؟!

ادوارد : وفى الطليعة دائما . وان كان الفضل فى ذلك ليس لى .

ريتشارد : « مبتسما » تريد أن تقول ..

ادوارد : « مقاطعا » أريد أن أقول ان جدتى لأبى قالت لى ان الذكاء فى أسرتنا ــ أعنى أسرة ألن الشهيرة ــ كالمتاع يتوارثه الأبناء عن الآباء .

ريتشارد : « وهو يناوله كأسا أخرى » هل لك فى أن نشرب معا كأسا ثالثة من هذا النبيذ ، أنه نوع جيد على ما أعتقد .

ادوارد : «بعد أن يشرب» ولكن لماذا كانوا يصفونك دائما بالغباوة؟!

ريتشارد : لأننى غبى !

ادوارد : انك لم تكن غبيا البتة .

ريتشارد : ولكن لم أكن ذكيا على أى حال .

ادوارد : ولكنك كنت تميز بين الأشياء .

ريتشارد : التافه منها ، كأبناء هذه المدينة !

ادوارد : لا ، كل ما فى الأمر أنك كنت غير موفق فى عملك .

ريتشار : أوه ! لم أكن أبدا غير موفق . ولكم ساءنى هذا التوفيق ، وأقض مضجعى ، وجعلنى قلقا الليالى الطوال . أهتف بالغمض فلا أجد اليه سبيلا .

ادوارد : ولكن ...

ريتشارد : ولكن لا تقاطعنى . استمع الى قصتى العجيبة . ان غيرك لن يستطيع أن يسمعها . (يصمت فى وجوم ، ثم يستطرد) فى ذات يوم عثرت عفوا على كتاب فريد فى نوعه ، يسمى « القوى الغامضة فى العقل البشرى » .

ادوارد : تقصد قراءة الأفكار . أنا قرأت عدة كتب فى هـــذا الموضوع ، وتعلمت كيف يقرأ الانسان أفكار الغـير ، فزوجك مثلا تفكر فى اسم من الأسماء أو عدد من الأعداد، فتذكره أنت . وأشهد أنها كانت تجارب مسلية للغاية ، ولكنها لم تكن دائما ناجحة .

ريتشارد : أنا لا أقصد هذا ، ان ما تعنيه أنت هو تجارب التذكر ، واختبار الذاكرة ، أما ما أعنيه أنا فهو المرئيات الثانية . والمرئيات الثانية معناها معرفة المستقبل والانسان الذى يوهب هذه القدرة . أعنى القدرة على اكتشاف الرؤية الثانية ، يكون قادرا على التنبؤ بما سيحدث مستقبلا (يصمت قليلا) .. الكتاب قال هذا ، وقال أيضا أن هذه القوى الخارقة نادرة الوجود جدا . واحد فى المليون فقط هو الذى يملكها . وفى الغالب يجهل هذا الواحد انه يملكها وان اكتشفها يجهل كيف يسيرها .. الكتاب

قال هذا ، وقال أيضا ، أن هــذه الرؤية الثانية يمكن تنميتها ، بحيث يسهل استغلالها وذكر الكتاب كيف يكون ذلك .

ادوارد : (فى دهشة) أنا لا أفهم شيئا مما تقول ، وضح . وضح يا مستر ريتشارد لين .

ريتشارد : (كمن يضيق بغباء محدثه) أرجوك . لست أنا الذى أقول ذلك . وانماالكتاب هو الذى يقول ، (يصمت قليلا) وقال : اسأل نفسك عدة أسئلة ، عن تلك الأشياء التى تتوقع حدوثها ، وعليك أن لا تشغل عقلك بشىء . اجعله كصفحة بيضاء تجد الجواب فى الحال ، منقوشا على تلك الصفحة .

ادوارد : هذا هراء فى هراء . انه غير ممكن . ان الانسان لا يمكنه التنبؤ بالغيب البتــة مهما كان ، ومهما كانت قدرته وقوته .

ريتشارد : (فى ألم) كم تريحنى لو لم تقاطعنى يامستر ادوارد ألن، اصغ الى ، والى قصتى العجيبة . هذا أجــدى عليك (يشرد بفكره كمن يستذكر شيئا حزينا) كنت مجرد طفل حتى فى تفكيرى ، وكنت مثلك تماما غير مصدق لما جاء فى هذا الكتاب ، أومفيد هوَ حقيقة أم لا . ولكنى حاولت أن أجرب ، وأشهد أنها كانت تجارب قاسية للغاية . ولكنى لم أيأس . هكذا قال لى الكتاب . قال لا تيأس مهما أتعبتك التجارب لأنك ستجد فى النهاية تلك الطاقة التى تطل منها على الغيب (يصمت قليلا) وأخيرا بدأت أرى فى الغسق خيطا لازورديا . أى بدأت محاولاتى تنجح ، ولكن فى الأشياء التافهة مثلا أسأل نفسى : من الذى سيدخل على الغــرفة الآن . . ولكم كان سرورى بالغا عندما دخلت على قطتى السوداء ،

التى تنبأت بدخولها . ثم تدرجت بعد ذلك فى المحاولات من صعب الى أصعب حتى حدث ذلك الاختبار التاريخى الذى كنت أخافه دائما وأخشاه وأتهيب منه ، لأنه نوع من الخداع وهذا ليس من خلقى . فقد حاولت التنبؤ بالأسئلة التى سأمتحن فيها .

ادوارد : وماذا كانت النتيجة ؟ انى أذكر يامستر لين أنك قفزت فجأة من مؤخرة الصفوف الى مقدمتها . وأذكر أنك آذيتنى بهذا السبق ، وسببت لى ألما بتفوقك الدائم فى الامتحـــان .

ريتشارد : (بألم) أعرف ذلك . لقد كنت دائما أحقد عليك لأنك تتفوق على وتهزمنى ، ولكن بعد ذلك كنت أنا دائمـــا المتفوق عليك ، لأننى أصبحت مخادعا فذا . . لا تندهش! أنا أعترف بأن نجاحى كان خدعة كبيرة . ثم سارت حياتى بعد ذلك ، نفس النسق ، خداع فى خداع . وهذا هو سبب فشلى فى الحياة .

ادوارد : ولكنك بهذه القدرة العجيبة . قدرة التنبــؤ بالغيب تستطيع أن تنال حظا كبيرا من النجاح . انى أسائل نفسى فى عجب : كيف لم تصبح أغنى رجل فى العالم ؟

ريتشارد : لا تتعجلنى ، ودعنى أتم قصتى .

ادوارد : قل ، قل . انها قصة عجيبة حقا يامستر ريتشارد لين.

ريتشارد : لقد أصبحت بفضل هذه الرؤية الثانية ، قادرا على كل شىء ، قادرا على التنبؤ بالغيب ، وتمزيق تلك الحجب الكثيفة ، التى تفصل بيننا وبين المستقبل ، ومعرفة ما سيحدث للغير (يصمت قليلا وينظر الى الساعة ثم يستأنف حديثه) وكان على أن أوجه كل هذا (الخير) ـ كما كنت أسميه ـ الى نفسى أولا ، فصنعت لهـــا (الحظ) أول ما صنعت ، وقدمته لها هدية جميلة ،

فكسبت كل جائزة مدرسية ، كما تعلم ، ثم كسبت المجانية فى التعليم الجامعى ، وكل جائزة جامعية بعد ذلك . لأننى كنت دائما فى مقدمة الناجحين ، ولما تخرجت عينت أستاذا فى الجامعة ، ويؤسفنى أن أقرر لك أننى كنت أصغر أستاذ تولى هذا المنصب فى تاريخ الجامعة.

ادوارد : هذا شىء جميل . ثم ..

ريتشارد : قدمت استقالتى فى اليوم الأول من الشهر الثانى (يصمت حينا) لقد كان يجب على أن أستقيل ، (يغمض عينيه) كنت أجهل المادة التى أدرسها ، وهى الأدب الانجليزى ، ولا أعرف منها الا القدر الذى اجتزت به الامتحان . أعنى الأسئلة التى تنبأت بها ، ودرست الاجابة عنها .

ادوارد : أوه ! لم أكن أتوقع ذلك ، وماذا حدث ؟ لابد أنك بحثت عن عمل آخر .

ريتشارد : بحثت طويلا ، وأرسلت عدة طلبات . وكانت غايتى أن التحق بأية وظيفة . ولكنى لم أوفق غير أننى فى النهاية، وفقت الى عمل صغير متواضع .. مدرسا فى احدى المدارس الأولية .

ادوارد : أوه ! هذا فظيع ... وبعد .

ريتشارد : استقلت أيضا ، أو قل أرغمت على الاستقالة .

ادوارد : كيف ذلك ؟ انك ولا شك تكون محبوبا من تلاميذك ، لانك سترشدهم الى سبل النجاح .

ريتشارد : (يتبسم محزونا) أجل كان يمكن ذلك ، ولكن ضميرى لم يسمح لى بأن أورط تلاميذى فى الجهل الذى تورطت انا فيه (كمن يستجمع شتات ذاكرته) أجل لم يسمح لى ضميرى أن أخادعهم هذا الخداع الفظيع الذى خدعت به نفسى لذلك تجنبت ما استطعت مواضع الأسئلة

التى سيمتحنون فيها ، فرسب جميع التلاميذ ، فرميت بالغباء وعدم القدرة على التدريس . وكان أن تركت وظيفتى وأصبحت متعطلا . فقلت لنفسى : اذا لم يتيسر لى الحصول على المال الشريف فسيتحتم على أن أحصل عليه من أى طريق آخر (ينظر طويلا الى ادوارد) . ألم تذهب يوما الى السباق ، وتراهن على الجياد ؟؟

ادوارد : أجل ، وراهنت غير مرة . وما زلت أراهن على الملكة الفضية !

ريتشار : (وقد أغمض عينيه حينا) ... راضى هو الأول والملكة الفضية هى الثانى ، والحظ هو الثالث . أنت ستخسر جميع مراهناتك يامستر ادوارد ألن ، ولكنك ستربح فى النهاية . وستربح ربحا طيبا .

ادوارد (فرحا) شكرا .. شكرا . ولكنى اريد ان أسأل : اتراهن أنت على الجياد ؟!

ريتشارد : وربحت مالا طائلا ، ولكن لم أشعر بلذة هذا الربح . ان المراهنات غير مسلية ، ولا سيما اذا عرفت بأنك ستربح دائما ، ان لذة المال ليست فى الحصول عليه ، وانما فى البحث عنه .. ان تفكيرك فى المال أسعد بكثير من حصولك عليه .

ادوارد : هذا اسراف فى الخيال يامستر ريتشارد .

ريتشارد : تعنى ...

ادوارد : أعنى أن المال نفسه هو السعادة . فكيف لا يطربنى الحصول عليه ؟

ريتشارد : ان بين القمة والقمة مسيرة خطوات ، فالذى يشغلك هو هذه الخطوات ، وليست القمة أبدا .. ان الخطوات التى بيننا وبين النهر هى اللحظات التى يعرف فيها قيمة الماء ، لأننا اذا بلغنا النهر نكون قد ارتوينا .

ادوارد : انك فيلسوف يامستر ريتشارد ... انك فيلسوف ، وبعد ...

ريتشارد : (ينظر طويلا الى اللوحة المعلقة أمامه ، ثم يواصل الحديث) ولما لم أشعر بلذة هذا الربح تركت المراهنات، والتحقت بمكتب للتأمين ، (يبتسم فى مرارة) كنت قادرا على أن أوجه الشركة الوجهة الصالحة فكنت مثلا اشير عليها بأنها تقبل على حياة هذا لأنه سيعيش طويلا، وترفضه على حياة هذا لأنه سيموت غدا ، وأن تقبل هذه الباخرة التى تمخر عباب اليم ، ولا تقبل هذه التى تتهادى على ضفاف المانش وبالطبع كانت نظرتى دائما صائبة ، فاكتسبت بذلك شهرة كبيرة وظنوا هذا بعد نظر منى ، فعينونى وكيلا للشركة فى احدى المدن الكبيرة ، ثم مستشارا عاما لها .

ادوارد : هذا عمل جميل ومربح فى آن واحد .

ريتشارد : بل هو مؤلم وقاتل فى آن واحد . لأننى سرعان ما أدركت خطورة ما أفعل ، وعرفت الجرم الذى أقدم عليه . لقد كانت الشركة دائما هى الرابحة ، والجمهور هو الخاسر . لكم هو مؤلم يا مستر ادوارد أن تسرق أموال الجمهور لتقدمها للشركة ، وأن تحرم هذا حقه ، وتعطى هذا ما ليس من حقه ، ولذلك كان التأمين الوحيد ، الذى أكسبنى سرورا لا حد له هو ذلك الذى أشرت على الشركة أن تعقده ، فخسرت الشركة بذلك جميع الأموال التى ربحتها . وكانت النتيجة أنهم أقصونى عن عملى ، وأقصونى فى وقاحة .

ادوارد : انك تحمل قلبا كبيرا وضميرا حيا ، ولكن لماذا لم تخض ميدان التجارة ان فى استطاعتك أن تكون ناجحا فيها ، دون أن تسبب اذى للآخرين .

ريتشارد : (وهو يزم شفتيه) حاولت ذلك ، ولكنى سرعان ما عدت وانا أكثر ألما وحزنا من ذى قبل .

ادوارد : كيف ؟ ألم تنجح فى تجارتك ؟!

ريتشارد : لقد نجحت نجاحا كبيرا ، وجمعت مالا كثيرا . وأصبحت من أصحاب الملايين ولكنى فقدت لذة النضال فى سبيل الكسب . . اننى رجل غنى الآن . ولكن أثر المال فى عالم السعادة قليل ، ان مجرد كسب المال ليس كل غرض ذى الضمير الحى . وليس هو كل ما ينشده الرجل الناجح . ان المنافسة ، والصراع ، والرغبة فى الانتصار، والأمل فى الربح ، كل هذا هو السعادة الحقيقية لرجل الأعمال . . . أن المال يعطى النفوذ والقوة . ولكن النفوذ والقوة لم يكونا أبدا أساس السعادة . أن النجاح يجب أن يقترن دائما بالمنافسة الشريفة . ان النجاح لعبة ، يكسب فيها الرجل الذى يستحق الكسب ، أما أنا فكنت أكسب من غير حق . من غير لذة . لأننى كنت اعرف بأننى سأكسب .. وحينما أكسب كنت أشعر بأننى أخدع الناس وكم هو مؤلم أن يخدع بعضنا بعضا . (يصمت قليلا ثم يتناول زجاجة النبيذ) لعلك تريد أن تشرب كأسا أخرى من هذا النبيذ ، انه نوع جيد على ما أعتقد (يناوله الكأس) .

ادوارد : (وهو يعيد الكأس بعد أن يشرب) أريد أن أسأل ، يامستر ريتشارد ألن ..

ريتشارد : (مقاطعا) تريد أن تسأل لماذا لم أجرب الحب ؟؟ .

ادوارد : (مدهوشا) ان أمرك لغريب يامستر ريتشارد . حقا انى أريد أن أسأل هذا السؤال : لماذا لم تجرب الحب ؟ لعلك تكون فيه أسعد حالا مما أنت .

ريتشارد : لم أجد فيه أية سعادة البتة « يغمض عينيه حينا »

واحدة من اثنتين يامستر ادوارد : امرأة أحبها أو امرأة تحبنى . فالتى أحبها لن أكاشفها بحبى لأننى أعرف سلفا ماذا يكون جوابها . أما التى تحبنى فهى تفقدنى لذة الصراع من أجل الحصول عليها والظفر بها « يبتسم محزونا » ان لذتك بالدفء وأنت بجانب الموقد ، مبعثها الثقاب الذى أشعلته بها . وأنا ليس لى تقاب ، لأن الموقد مشتعل دائما ... ان لذة الصيد ليست فى الحصول على القنص ، وانما هى فى مهارة الرماية ، واصابة الهدف وأنا لم يكن لى هدف ، لأن القنص فى يدى وهذا هو المؤلم ! .

ادوارد : ان قصتك عجيبة حقا يامستر ريتشارد .. وماذا تصنع الآن اذن ؟!

ريتشارد : لا شىء .. أقرأ القصص وكتب التاريخ . فأنا لا أستطيع أن أتنبأ بحوادث القصة ، لأن الخيال ليس له فى عالم الحقيقة نصيب ، وكذلك التاريخ ، فقد مضت حوادثه، وليس من سبيل الى ارجاعها . أليس كذلك ؟

ادوارد : اذا أخبرنى : ما دمت تحب القراءة ، فلماذا تضيق بالمناقشة ؟؟

ريتشارد : (وهو يبتسم فى سخرية مرة) أنظر الى هذه الأوراق، التى كتبتها قبل أن تجىء .

ادوارد : (يتناول الكراسة من فوق المكتب ويقلب صفحاتها فى دهشة وعجب ثم يقرأ بصوت عال) ... أنته تعرف اسمى اذن ... انى ضابط فى الجيش ولكنى متقاعد.. أظن الدكتور رودن حدثك عنى .. انى أحمل منه رسالة اليك .. لقد قرأت عنك مقالا فى احدى الصحف .. أرجو الا تغضبك هذه الزيارة غير الرسمية .. فى اليوم السادس من يونيو (ينظر الى ريتشارد مأخوذا)

يا الهى ! انه نفس الحديث الذى ألقيته عليك الآن !

ريتشارد : لقد كتبت هذا قبل أن تدخل على الغرفة (يصمت قليلا) أظنك الآن عرفت لماذا لا أحب المناقشة . أنا أعرف دائما ما سيقوله المرء الذى يريد أن يناقشنى (يمد يده ليتناول الكأس ، ولكنه لا يقوى هذه المرة على حملها ، فيرد يده شاحب الوجه وينمتم) : ما الوقت الآن ؟!

ادوارد : السادسة الا أربع دقائق .

(يزداد شحوب وجه ريتشارد وتلمع عيناه لمعانا مخيفا ، ويقول ادوارد مضطربا) : ولماذا تستبقينى حتى الآن ؟

ريتشارد : انت الذى أردت أن تنتظر لتسألنى عما سيحدث لزوجك ، انك تريد دائما أن تعرف شيئا عنها ، اطمئن (يغمض عينيه ثم يفتحهما) انها ستكون أرملتك .. وستتزوج بعد خمسة عشر شهرا . اما أولادك فسيرعاهم انسان آخر .

ادوارد : (جزعا) أرملتى ؟ أرملتى ؟ ماذا تقصد بهذا ؟؟

ريتشارد : ما الوقت الآن ؟

ادوارد : السادسة الا ثلاث دقائق .

ريتشارد : (ينهض متخاذلا ، ويذهب الى المنضدة ، ويتناول كتابا صغيرا ، ويلقى به فى الموقد ، ومن ثم يقف ممتقع الوجه، يتطلع الى النار تلتهم صفحاته) .

ادوارد : ماذا فعلت ؟؟

ريتشارد : أحرقت الكتاب الذى جعلنى أغنى رجل فى العالم ، ولكنه لم يستطع أن يسعدنى لحظة واحدة (يذهب لاهثا الى المقعد الذى عليه الوسادة ويجلس متهالكا ، يمسح العرق الذى يتفصد من جبينه ، ثم يتمتم وهو يشير الى

الزجاجة) أريد كأسا من هذا النبيذ . انه نوع جيد على ما أعتقد .

ادوارد : (وهو يناوله الكأس مضطربا) أمريض أنت ؟ أأحضر لك طبيبا ؟؟

ريتشارد : ما الوقت الآن ؟

ادوارد : السادسة الا دقيقة واحدة .

ريتشارد : (وهو يجاهد شفتيه) أظن أننى الآن فى طريقى الى الموت .

ادوارد : (مرتاعا) الموت ؟!

ريتشارد : أنظر الى هذه اللوحة (يحاول أن يشير اليها بيده ولكنه لا يستطيع) الساعة السادسة . من اليوم السادس ، من الشهر السادس عام ١٩٤٦ هذا هو التاريخ الذى سأموت فيه .. أنا لا أقدر أن أخادع فى هذا الامتحان . أ . . أ . . أقصد . . ال . . ال . . الموت (يحاول أن يدنى الكأس من شفتيه . ولكنه يتخاذل ، وتسقط الكأس من يده ، فيغمض عينيه ومن ثم يسقط فجأة على الأرض جثة هامدة . فى حين يخبو ضوء المسرح رويدا ، بحيث يعم الظلام ولا يرى غير صفحات الكتاب تحترق . وحين يسدل الستار على مهل تدق الساعة دقتها السادسة تماما .

آفة السعادة

كان القصر الفخم الذى شيده لهـا فى ضيعته الواسعة ، يقوم وسط حديقة غناء شد ما جهد حتى وقع على البستانى الذى نسقها تنسيقا جميلا ، يتفق وعظمة القصر الأبيض الجاثم خلالها تحف به اشجار السرو العالية التى التفت حوله من كل جانب كأنها التعاويذ تحرسه من الأرواح المادرة فى خيالات القدماء ... أما من الداخل فكان القصر كأنه قطعة من الجنة هبطت من السماء وسكنت فيه ، فأنت لا تستطيع أن تقضى فيـــه لحظة دون أن تحــير عيناك بين العمد الرخامية المحلاة بالذهب والفضة والتحف الدقيقة الصنع ، والتماثيل التى صاغتها يد فنان ماهر ، والأرض المغطاة بخشب الباركيه والسجاد العجمى المستورد للقصر خصيصا من أشتات بقاع العالم وبينما أنت فى حيرة عينيك بما تأخذ وتقع عليه ، اذا بك تذهل من طلعة الحسان السبع اللائى يقمن على خدمة سيدة القصر ... هذا غير الخدم والعبيد الذين هم رهن اشارة منها فى أية لحظة من لحظات الليل أو النهار .

وكانت تنظر الى هذا كله مغتبطة به راضية عنه ، مطمئنة اليه ، فلم تكن تأمل من دنياها أكثر من هذا النعيم ، ولم تكن تطمع فى أكثر من هذا الزوج الشاب الذى هو من كبار رجال المال . فقد اتصلت تجارته الواسعة بجميع أطراف المعمورة بين شرق وغرب ، وراحت دور المال تطلب وده وتترضاه وهو لم يبلغ بعد الخامسة والثلاثين من عمره حتى الأمنية التى كانت تراودها أحيانا ، وتمس خاطرها مسا خفيفا . وهى أن يحمل زوجها الشاب لقبا كبيرا من ألقاب الدولة . قد تحققت هى الأخرى . وأضحى زوجها الشاب يلقب بصاحب السعادة .

ولكنها على الرغم من ذلك كله كانت تشعر بأن شيئا ثمينا ينقصها وأنها فى حاجة الى هذا الشىء المجهول الذى أقلقتها كثرة التفكير فيه .

أما ما هو هذا الشيء الذى تبحث عنه ، فهى نفسها كانت لا تعرفه . بل لا تعرف له اسما أو نعتا بينها وبين نفسها ، ومع أن هذا التفكير كان يجهدها ، استسلمت اليه وأغرقت فيه وما كانت تظن أبدا أن الظروف ستواتيها به فجأة ذات يوم وعلى غير قصد منها . ذلك أنها فى احدى الليالى أوت الى مخدعها مبكرة كعادتها وبعد أن نزعت ثيابها واستلقت على الفراش الوثير ، أمرت الخادم التى هيأتها للنوم أن تنصرف وأن تطفىء النور وظلت هى حينا مستلقية على الفراش تفكر فى هـذا الشيء الممض المجهول الذى أقلقها ثلاث سنوات من يوم أن تزوجت حتى الآن وعرضت منها التفاتة عابرة فرأت شيئا مستلقيا الى جوارها فوق السرير . ومع ذلك لم تنظر اليه . وانما نظرت الى النافذة فألفتها غير محكمة . فأدركت أن نور القمر الفضى هو الذى تسلل منها وتمدد بأزائها فوق السرير يبتسم فى دعة كطفل وليد تداعبه الملائكة فى النوم فلم يضايقها القمر بقدر ما ضايقها اعجابها بنوره ، فذلك الاعجاب قد يصرفها عن النوم ، وهى ان شغلت ليلة عن النوم أجهدها التفكير ، لذلك ذهبت الى النافذة لتغلقها ، فطالعتها الحديقة الوسنانة نائمة فى أحضان الليل وكأنها مستسلمة الى حلم جميل.، وشاقها المنظر ، منظر القمر الساطع ، وهو يصب ضحكاته على رؤوس الأشجار البكر ، وأفواف الزهر الفواح ، فراحت تتطلع اليه .

وبينما هى تنظر الى هذا كله معجبة به مبتهجة له ، اذا بها ترى (خص) عم أحمد بائع الفجل مضاء . فألقت ببصرها جميعه اليه . واذا بعم أحمد يتناول العشاء مع زوجته ، واذا بالعشاء عدة أرغفة مختلفة ألوانها وأحجامها ، هى التى باع بها الفجل فى نهاره ، ثم قطعة من الجبن « القريش » الجاف وهذا كلما هناك . وان كانت «الطبلية» قد زينت جوانبها بأعواد الفجل الخضراء ورؤوسه الكبيرة البيضاء ، فأمست فوقها كباقات منسقة من زهر جميل .

ورأت سيدة القصر عم أحمد كلما ألقى بيده فى « المشنة » وأخرج

رغيفا ووجده من الخبز الأبيض ، خص زوجته به ، وكلما عثرت هى برأس فجلة نظيفة بيضاء طريةخصت بها زوجها · وقدمتها له باشة ، فيتناولها من يدها مبتهجا ، وحين فرغا من العشاء ، مد عم أحمد يده الى « قلة » كسر عنقها فبدت شوهاء أفرغ نصفها فى جوفه ، ودفع اليد الثانية فى جيب ثوبه الممزق البالى ، وأخرج علبة من الصفيح الصدىء فألقى بها ثلاثة من أعقاب اللفائف المذهبة كان قد عثر بها فى الطريق ، فأفرغها فى ورقة خفيفة بيضاء ، ثم لف الورقة فاستوت فى يده لفافة جميلة أشعلها وهو يرسل عقيرته فى الفضاء العريض الممتد أمامه ، وراحصوته الجميل ينسكب فىسكون الليل أنغاما عذبة وكلما رأى الطرب على زوجته انطلقت حنجرته وزادت لياليه وتعددت مواويله « الحمر » وظل كذلك الى أن أتعبه الغناء فمد يده وأطفأ ذلك السراج الخافت الذى كان السرور قد أطربه هو الآخر ورنحه فراحت ذبالته تتمايل ذات اليمين وذات الشمال مع نسمات الليل الخفيفة العابرة ثم احتضن زوجه وناما على الأرض فى العراء ·

ونظرت سيدة القصر الى هـذا كله وتأملته وتفرست فيه ومن ثم راحت تفكر فيه جاهدة ومكثت كذلك زمنا لا تعرف ان كان قد طال أم قصر ، ثم ردت الطرف مخضلا ذلك لأنها عثرت فعلا على ذلك الشىء الذى كان ينقصها وهو زوجها وهو وجودها ودنياها ·

ان زوجها الثرى الشاب قد ألهته تجارته عن البيت ، وثناه ماله عن الزوجة ولكن ماذنبها هى ، بل ما فائدة كل هذا عندها · ماذا تفيد هى من هذا الثراء العريض وماذا تجد فى هذا القصر المنيف ؟ وما الفائدة بذلك الرجل العظيم ، الذى هو رجلها ··· أهذا هو الذى تنشده الزوجة من دنياها ··· ؟ أهـذا هو الذى تعيش من أجله المرأة ؟ ·· لا ان للمرأة فى الحياة غاية ، ليس الجوهر فيها هو الثراء والجاه والترف ، وانما يتركز الجوهر فى حكمة واحدة ، حكمة لو جمعت حروفها لكانت كلمة « رجل » وهذه النتيجة لم تخطىء مرة منذ خلق الله الدنيا ولم تفضل عليها المرأة شيئا منذ وجدت ، حتى

جنة الخلد فقد باعتها حواء واشترت بها آدم ··· رجل ··· رجل تكون له بقلبها وفؤادها ويكون لها بوجوده وكيانه ، لا تلهيه تجارة عنها ، ولا يخطف أبصــاره بريق الذهب · ويحول بينه وبين بحر العقيق المتموج خلف خديها فهل هو كذلك ؟ ··· وهل هى أيضا كذلك ؟ ··· وليت حظها ، يوم أن ذهب بها الى سوق الزواج ، أخطأ تاجر الذهب والفضة ، وقادها الى تاجر النحاس والحديد ··· ليته أخطأ تاجر الدمقس والحرير وقادها الى تاجر الأســمال البالية ، وبائع الفجل ، اذن لكانت زوجة سعيدة حقا محظوظة حقا · تتيه على النساء بسعادتها ··· ولكن أمن المعقول أن يسعد بائع الفجل وزوجته كل هذه السعادة ، وتشقى هى وزوجها كل هذا الشقاء ؟

ألقت على نفسها هذا السؤال ، ولما لم تجد له جوابا شافيا ، ردت النافذة وعادت الى السرير تجفف فى الظلام دمعة لؤلؤية ، انحدرت على خد متورد جميل وهمت بأن تنام مستسلمة الى هذه الدموع التى لم تعرف لها ردا · بيد أن أضواء القصر المنيف أضيئت فجأة وتلألأت مصابيحه ، وتعالت أصوات الخدم وكثر ضجيجهم ولغطهم ، وفجأة أعلن مقدم الباشا بعد غيبة طويلة امتدت الى أسابيع ، فسارعت الى ارتداء الروب ، ووقفت لحظة أمام المرآة أصلحت فيها من نفسها ، ومن عينيها المحزونتين وشعرها الكئيب الذى تراخى كالعلم المنكس ، حول جيد أتلع خلق ليتلألأ تحت الشمس فكان نصيبه الحرمان منها ، ثم ذهبت الى الزوج العائد ، واستقبلته معانقة كالعادة كلما التقيا بعد غيبة طويلة ، ولاحظ الزوج المتلهف فتورا فى كل شىء حتى فى هذا العناق غير المشبوب ، فسألها ولكنها أنكرت ، ولما ألح فى السؤال ارتمت على صدره باكية منتحبة · وظلت تبكى وظل بهذا حتى هدأت ثورتها · ولما اطمأنت واستكانت عاد فسألها من جديد · وهمت بأن تقول له شيئا وهم هو بأن يصغى اليها باهتمام · بيد أن الدموع عادت فغلبتها فشغلت بها طوال الليل ، كما شغل هو أيضا طوال الليل ·

فلما جاء الصباح عاد الباشا فسألها ثانية فأخبرته بأن كل شيء سيكون عند ما يأتي المساء · وفي المساء دون أن تقول له شيئا قادته من يده الى الشرفة ، ووجهت نظره الى الخص والى عم أحمد الجالس وسطه يغني كعادته ، والى زوجته وهي أمامه تتمايل كلما رنحها الطرب وتضحك ملء شدقيها كلما فاض عليها السرور ثم لفتت سيدة القصر زوجها الباشا الى كل ما في الخص من دقائق ، حتى القلة المكسورة العنق ، وعلبة اللفائف الصفيح ، حتى « المشنة » وما فيها من أرغفة مختلفة الألوان والأحجام ·· ونظر الباشا الى كل ذلك وتفحصه ودقق فيه · ولما فهم كل شيء فكر طويلا ، ثم رد الطرف الى زوجته وتمتم محزونا :

ـ أتعرفين لماذا هما سعيدان ؟ ·

فقالت ولوعة الأسى تقطع نياط قلبها الشاب :

ـ انني أسألك ؟ ·

فألقى برأسه بين راحتيــه ، وعكف حينا لا يطرف ، ثم تركها وحدها في الشرفة ومضى صامتا الى مخدعه وقضى فيه ليلة · يقول أحد الخدم انها الليلة الأولى التي لم ينم فيها سيد القصر ·

وفي الصباح استيقظ الباشا مبكرا على غير عادة ، وهبط الى الحديقة الجميلة الغنـــاء ، ومكث حينا يسير بين الورود المتفتحة والأزهار الغضة اليانعة ، لعل عبيرها يحد من ألمه بعض الشيء ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ووقف وسط الحديقة ينظر الى القصر الشامخ ويتأمل الحديقة الغناء ، ويتخيل أكياس الذهب التي يملكها والتي يتلألأ وهجها في خاطره كلما نام أو استيقظ ، ونظر الى كل ذلك وفكر في كل ذلك ثم ابتسم ابتسامة لم تعرفها شفتاه منذ ولد ، ثم بعث باستدعاء عم أحمد بائع الفجل ، ولمـــا مثل بين يديه قال له مبتسما :

ـ لقد أعجبني صوتك ليلة البارحة ، ولهذا أريدك أن تكثر من غنائك كل ليلة ·

وقبل أن يجيبه عم أحمد بشىء بسط له الباشا يده الكريمة وفيها ورقة مالية من فئة الخمسة جنيهات وهو يقول :

ــ هذه هدية منى اليك أرجو قبولها ٠

ولمعت عينا عم أحمد وهم بأن ينحنى على يد سعادة الباشا يلهبها لثما وتقبيلا ، ولكن الباشا كان قد تركه وانصرف ٠

ونظر عم أحمد الى هــــذه النعمة التى هبطت عليه من السماء فلم يصدق عينيه ، ولما أعاد النظر وعرف أنها حقيقة ، أذهلته الفرحة عن وقاره ، فانطلق الى « الخص » يعدو كطفل هارب بقطعة من الحلوى وما ان التقى بزوجته فيـــه حتى ارتمى على صدرها مخضل الطرف من شدة الفرح ، وما ان رأت الجنيهات الخمســة فى يده ، وعرفت أنها له ، حتى راحت هى الأخرى تعانقه وتقبله ، والفرحة تكاد تنفجر أنوارا من عينيها٠

وبعد أن جلسا معا قليلا ، وتناولا معا طعام الفطور كالعادة ، أحس عم أحمد ولأول مرة فى حيــاته ، أنه متعب هذا اليوم ، وأنه لا يستطيع أن يتجول فى القرى والدساكر كالعادة ، ولذلك فضل الراحة والاستجمام فى هذا اليوم السعيد الذى طلع عليه صباحه بخير لم يكن يحلم به ، ووافقته زوجته على ذلك ، لتريحه من جهة ولتتشاور معه من جهة أخرى على مصيرهما بعد هذه النعمة التى هبطت عليهما من السماء ٠

ولما تشاورا فى ذلك الخير ، كان من رأى عم أحمد أن يشترى بهذا المبلغ حمارا يريحه من عناء السير على قدميه طوال النهار ، ولأن هناك بلادا نائية ، بدون الحمار ، لا يستطيع عم أحمد أن يبلغها ، وان وجد الحمار وبلغها وتجول فيها ، راجت بضاعته وربحت تجارته وبذلك يكثر دخله ويوسر حاله ، ولكن زوجته رأت أن الأفضل ، هو أن يستأجر عم أحمد بهذا المال قطعــة أرض من حديقة الشيخ رشوان ، يزرعها فجلا ، بدل أن يشتريه من الزراع يوما بيوم ، وبهذا يتضاعف الربح ، اذ يكسب بذلك ربح الزرع والبيع معا ، ولكن

عم أحمد فضل الحمار ، ليريح شيخوخته على الأقل ، وضايق هذا الزوجة ، لأنها تستصوب رأيها ، لذلك أصرت على ضرورة استئجار الأرض ، وظن عم أحمد أنها بهذا الاصرار تحول بينه وبين راحته ، فصمم على شراء الحمار ، واحتدم الخلاف بينهما فتخاصما ٠

وفى المساء أطلت سيدة القصر من النافذة فلم تر « الخص » مضاء كالعادة وانما رأت الزوجة مستلقية على « حزمة » من القش ، بينما عم أحمد يجلس وحده مهموما أمام الخص ، وقد ألقى برأسه بين فخديه ، وكأنه يعانى هما كبيرا ، فدهشت لهذا التحول الغريب الذى لم تكن تنتظره٠

وفى الصباح لم يبرح عم أحمد الخص أيضا لأنه أراد أن يقنع زوجته بصحة رأيه وهى الفائدة التى ستعود عليهما من شراء الحمار وفعلا ظل طول اليوم يقنعها ، ولكنها لم تقتنع ، وأصرت على استئجار الأرض ،وعز على عم أحمد أن تتحكم فيه امرأة ، فقال لها جادا وقد كشر عن أنيابه :

ــ لقد صممت غدا على شراء الحمار ٠

فقالت محتدة وقد بلغ بها الغضب مبلغه :

ــ ولكنى صممت على أن نستأجر الأرض ٠

فقال حانقا :

ــ ولكنى أفضل الحمار ٠

فقالت غاضبة :

ــ ولكنى أفضل الأرض ٠

ــ ولكنى أنا الرجل ، ولابد من أن تجاب رغبتى ٠

ــ وأنا شريكتك فى حياتك ، ولابد من أن تعمل بنصيحتى ٠

وثارت ثائرته ، ولأول مرة فى عمر عم أحمـــد المديد ، ينهال على زوجته ويوسعها ضربا مبرحا ، وتروح هى تستغيث ٠

وفتحت سيدة القصر نافذتها ونظرت الى « الخص » فلم تر غير هراوة ضخمة تنهال على جسد امرأة عجوز تصرخ وتستغيث ، فدهشت

وحاولت أن تعرف السر فى هذا الانقلاب الغريب ، ولكن أحدا فى القصر لم يكن يعرف ٠

وهكذا ظلت سيدة القصر ست ليال ترى فيهـــا الخص معتما قد خيمت عليه الكآبة واكتنفته الأحزان ٠

وفى أمسية الليلة السابعة ، كان الباشا المثرى يجلس مع زوجته يتناولان عشاء خفيفا ، تحت ضوء القمر فى الحديقة المترامية الأطراف واذا بعم أحمد يقبل عليهما مهموما محزونا ، يكاد من فرط ما ألم به منهم ، وأمضه من حزن يتعثر فى خطاه وتقدم من الباشا فى شيخوخة ذليلة ونفس كسيرة مكتئبة وقال وهو دامع مقرور :

ــ كما قبلت هديتك يا باشا عن طيب خاطر ، اسمح لى أن أردها اليك عن طيب خاطر أيضا ، فما رأيت كالمال عدوا للسعادة ٠

ثم ألقى بالورقة الملعونة ذات الجنيهـات الخمسة أمام الباشا على المائدة ، ومن ثم انصرف يجفف الدموع ٠

شىء واحد لم تكن تعرفه سيدة القصر ، ولكنها عرفته فى هذه الليلة ، وهو أن « خصا » من أعشاب الصحراء ، أعز منالا من قصر منيف ، وأن الذهب كالحديد يعلوه الصدأ فى كثير من الأحيان ٠

الفناجين الحمر

لم تكد الساعة تدق الثامنة مساء حتى كان الليثى أفندى شحاته الموظف بالأوقاف يدق بيده المتعبة على الباب كعادته دقا هينا منتظما . يماثل فى انتظامه دقات الساعة الكبيرة التى يرن جرسها رنينا متواليا فى الميدان الفسيح المطوف بداره وما ان سمعت زوجه الست فطومه الدقة الأولى حتى أسرعت تهرول بشحمها ولحمها المكتظ المترهل الذى يضايقها حتى فى النوم ويحول دون تصعيد أنفاسها بيسر فتسمع لها كلما نامت شخيرا بغيضا مزعجا كأنه خوار ثور أو حشرجة حيوان مذبوح . وما ان فتحت الباب ورأت يدى زوجها فارغتين حتى زوتما بين حاجبيها ومدت شفتيها الغليظتين فى امتعاض وقالت :

ـ فين العجوة يا ليثى ؟ .

فقال وهو يدلف مكفكفا : .

ـ لقيتها غالية قوى يا فطومة ! .

فحدقته بنظرة فاحصة وقالت :

ـ غالية ايه وهباب ايه يا راجل انت ياللى ما عندكش دم ! حاجة نفسى فيها تقوم ماتجيبهاش . ولو كانت حاجة للمفعوصة بنتك اللى ما لهاش شغلة طول النهار غير الأحمر والأبيض وتخطيط الحواجب كنت استلفت وجبتها لها ! .

فقال وهو ينزع جوربه المتآكل ويدسه بسرعة فى فراغ الحذاء الضخم :

ـ عيب يا فطومة ما هى بنتك برضه .

فقالت وهى تلوى شفتيها مرة أخرى وتشيح بوجهها :

ـ حسرة على وعلى بنتى ، اثنين وثلاثين سنة ، عشرة فى السبلاوين

وثمانية فى ديرب نجم ، وأربعتاشر فى المخروبة دى عمرى ما شفتك مرة داخل بايدك مليانه •

وضايقته هذه الثرثرة المملة التى تحفظها عن ظهر قلب فهم بأن يرمقها بنظرة تأنيب ولكنها كانت قد انصرفت بشحمها ولحمها تجر ساقيها جرا من ثقل الحمل الضخم الذى ألقى عليها القاء • ولم تمض سوى دقائق حتى كانت الأسرة جميعها قد انتظمت حول المائدة • الليثى أفندى ثم زوجه الست فطومة وفى الجانب المقابل جلست أنعام ابنتهما المدللة التى لا تنى أمها تحدث الجيران عنها بمناسبة وبغير مناسبة وتقول كلما ذكر اسمها :

ــ أنعام والنبى سعيدة من يومها • سنة ما حبلت فيها الليثى خد الدرجة وزادت ماهيته نص‌جنيه • ويوم ما ولدتها أبويا الله يرحمه طلع الحجاز وتاب علينا ربنا من السنبلاوين •

وبينما هم‌كذلك يتناولون عشاءهم فى هدوء وفى صمت لا يشوبه الا تقصف أعواد الفجل على المـــائدة أو صـــوت الأم الأجش الذى ينبعث بين الفينة والفينة ساخطا على الحرب وأيام الحرب التى أرت الناس العجب والصـيام فى رجب فغدت أقة العجوة باثنى عشر قرشا بعــد أن كانت بثلاثة قروش ، بينا هم كذلك اذا بالباب يدق على غير عادة فتوقفوا جميعــا عن الأكل وقامت الأم لترى الطارق ولكن بعد أن كسرت بيدها رأس فجلة كبيرة دستها فى فمها وانصرفت تفتح الباب • وما ان فتحته‌حتى طالعها وجه‌خادم نوبى نظيف فى ثياب ناصعة البياض • وتقدم منها وحيـــاها فى أدب جم ثم ناولها بطاقة وانصرف دون أن يقول لها شيئا • وحدقت فيه وهو يناولها البطاقة ولكنها لم تعرفه بيد أنه حين هبط الدرج استجمعت ذاكرتها فى أنحائها فذكرت أنه الخادم الذى رأته يدخل مرارا البيت المقابل لبيتهم والذى قالت لها أنعام عنه ذات مرة وهى معها فى النافذة أنه خادم الموظف العازب الذى سكن حديثا مكان البجورى أفندى كاتب الصحة •

وأدهشتها هذه المفاجأة غير المنتظرة فردت الباب وهى تحدج فى البطاقة وتكاد تلتهمها بعينيها حتى أنها كادت تصطدم بالمائدة وهى تقترب من زوجها لتناوله البطاقة • ونحى الليثى أفندى عنه طبق العدس وحزمة الفجل وتناول البطاقة وأدناها جدا من عينه اليسرى كعادته كلما طالع شيئا وتمتم (رفعت المنشاوى مهندس ميكانيكى) • ثم أدار البطاقة فى يده وقرأ :

« عزيزى الليثى أفندى • كان بودى أن أتشرف اليوم بمقابلتكم ولكنى لأمر هام سافرت فجأة ، فهل تنازلت وانتظرتنى فى منزلكم العامر فى تمام الساعة الخامسة بعد ظهر الغد » •

وسادت فترة صمت كادت تطول لولا أن الأم قطعتها بقولها :

ـ انت تعرفه يا ليثى ؟ •

فقال الليثى دون أن ينظر اليها لأن عينيه كانتا قد شغلتا بالنظر الى شىء بعيد •

ـ معرفة جيران يا فطومة •• سعيدة •• سعيدة •

فقالت الست فطومة وقد انفرجت أساريرها فجأة على أثر ادراكها شيئا معينا :

ـ جيرة الهنا • جدع مؤدب وابن حلال ، شهرين ساكن قصادنا الباب فى الباب عمرى ما شفته مرة شال عينه لفوق •

ثم قالت : آدى العريس اللى يفرح ويهنى صحيح • وهنا برقت عينا الليثى أفندى بريقا مفرحا بينما خضب الخجل وجه أنعام فانصرفت تتعثر بخطواتها وهى تكتم فرحة طارئة كادت تلهبها الهابا وتلقى بجسدها القاء لولا أنها كانت قد بلغت مخدعها فاستلقت على السرير تترنح من فرط السعادة المواتية وبقى الليثى أفندى والست فطومة على المائدة ينظران الى بعضهما البعض دون أن يتحدثا ، الى أن قالت فطومة ولكن بعد تفكير عميق :

ـ طيب مهندس عرفناها • لكن ميكانيكى يعنى ايه ؟ •

فقال الليثى أفندى وهو يلف بيده لفـافة من علبته الصفيح الصدئة ويصر على أنيابه من هذا الخجل المطبق :

ـ ميكانيكى يعنى مهندس وابورات يا فطومة ٠

فقطبت فطومة وزوت ما بين حاجبيها وعلت وجهها كآبة عارضة وقالت :

ـ يعنى عطشجى ؟ ٠

فأسرع الليثى وقال وهو يدارى ضيقه بهذا الجهل خلف ضحكة عريضة :

ـ يا ست ٠٠ مهندس ٠٠ مهندس ٠٠ يعنى مهندس فنى !

فقالت وهى على غاية من السرور وجارته فى ضحكه :

ـ والله عال يا ليثى ربنا عوض صبرك خير وخلاك تناسب ناس كبار ٠ ثم عادت فأحست بخطئها وأن فى هـذا ما يجرح كبرياءها وكبرياءه أيضا باعتباره والد العروس فقالت :

ـ وهو كمان يطول ٠ دابس زعق له نبى ٠ أنعام بنتى حزين اللى ما هى فى بيته ، جمال ، وكمال ، وشطارة تقعد قدام الفرن تخبز الست كيلات ما تقولش آه ! ٠

وهنا ضاق الليثى أفندى ذرعا بهذا الهذر السخيف الذى لا تنى تردده زوجه فنهرها فى قسوة وتركها وانصرف الى مخدعه لينام ويحول بين أذنيه وهـذا السخف الممل ، بيد أنها لحقت به فى ثورة وأغلقت باب المخدع خلفها ثم أقبلت عليـه فى غضب كمن يقبل على حشرة مؤذية ٠ وأفهمته أنه هـو السخيف ٠ وأنه هو الثرثار ٠ وأنه لا دخل له البتة فى شئون ابنتها فكل ما يتعلق بانعام من خطوبة وزواج وزفاف انما هو من اختصاصها هى ، فأنعام لا يمكن أن يقل مهرها عن مهر ابنـة عمتها نبوية مائة جنيه !

ولا يمكن أن تزف الا وأمامها الطبل البلدى ومزيكة الحـكومة ولابد من أنها ستفهمه غدا كل ذلك ٠

وهنا ثار الليثى ثورة عنيفة وهدد بطلاقها منه اذا أصرت على

مقابلته لأنه ليس من البلاهة بحيث يجعلها تقابل رجلا غريبا عنها واحتدم بينهما الخلاف حتى ان الليثى نسى نفسه وصفعها على وجهها صفعة موجعة انسابت بعدها دموعها وراحت تبكى وتولول وتندب حظها المائل وبختها الأسود ونصيبها الأشد سوادا الذى أوقعها على رجل يعجز عن أن يأتى لها بنصف أقة عجوة ومع ذلك يتجرأ ويصفعها على وجهها ٠

وتأثر الليثى أفندى من بكاء الست فطومة فتقدم منها وربت على كتفها واعترف لها بخطئه كما اعترف لها بحقها فى مقابلة خطيب ابنتها فهدأت ثورتها الى حد ما وراحت تجفف دموعها وتقول :

ـ اخص عليك يا ليثى ٠ بقى بعد اتنين وتلاتين سـنة أخدمك فيهم خدمة العبد للسيد تشيل ايدك على ، ما كانش عشمى ٠٠٠ ما كانش عشمى ٠٠٠ ما كانش عشمى أبدا يا ليثى ! ٠

وظل بها الليثى حتى الفجر تقريبا يهدئها ويعزو الخطأ الى نفسه حتى ضحكت وانصرفا معا الى السرير ولكن بعد أن اتفقت معه على أن الفستان البنفسجى هو الذى ستقابل به الخطيب غدا ٠ كما اتفقت له أيضا ثيابه ٠ وأنه لابد أن يرتدى البـذلة الرمادى التى فصلها من سنتين ، كما أنه لابد من أن يبتاع علبةسجاير « مكنة » ليقدم منها الى الضيف العزيز ٠ كما أنه لابد أن يحلق لحيته وينظف أسنانه هذه السوداء ويبعث بطربوشه الى الكواء ٠ كما أنها أفهمته ضرورة شراء زجاجة من رائحة « عطر القسيس » لتعطر منها نفسها وأنعام وغرفة الاستقبال أيضا ٠

وفى الصباح الباكر كانت الست فطومة تدق بيدهاعلى باب جارتها الست أم رمضـان لتقترض منها صـينية القهوة الصينى والفناجين الحمر وكوبة الماء الزرقاء الشبيهةبالبرميل لتقدمها للضيف العزيز الذى سيجىء ليطلب يد أنعام كما اقترضت منها أيضا فنجانا من ماء الماورد لتضعه على المـاء حتى يجعل له رائحة زكية ، ثم عادت فأيقظت أنعام التى كحل السهد جفونها طول الليل من كثرة تفكيرها

فى أشياء جديدة عليها أحست لأول مرة بلذة التفكير فيها وحلاوة التأمل فى أعماقها ثم راحت تنظف البيت تنظيفا لم تشهده الدار منذ عشر سنين أو بالحرى منذ أن سكنوا فيها ٠

وأقبل الظهر فأقبل معه الليثى أفندى يتيه عجبا بطربوشه الذى تضاعفت حمرته بعد كوائه وذقنه التى تبلورت بعد حلاقتها وبحذائه الذى راح يبرق بريقا لامعا بعد دهانه وأسرع الى المطبخ وقد نزع ثيابه وظل يعمل فى أسنانه « بالسواك الخشب » حتى سال الدم من فمه على حين كانت الست فطومة مع أنعام فى الحمام تغسل لها جسدها وتدلكه لها تدليكا وتنظف لها ساقيها وقدميها بقطعة من الحجر الأسود الخشن حتى كاد الدم يسيل منهما ولم تلبث الست فطومة بعد أن اغتسلتا وتزينتا كما يجب أن تكون الزينة أن أتت بزجاجة عطر القسيس وأفرغت نصفها عليهـا وعلى أنعام ٠ وما ان فرغتا من كل هذا حتى كانت الساعة قد بلغت الرابعة والنصف وكان البيت يموج بالبهجة وتتصاعد منه رائحة عطر القسيس ٠

وبينما كان الليثى أفندى يختال تيها بنفسه حيال المرآة ويتفقد ملابسه ويصلح ما اعوج منها كانت الست فطومة وأنعام فى النافذة تترقبان كل غاد ورائح وكلما أقبل انسان أو خطر عابر رأرأت عينا الأم واختلجت أساريرها واضطرب قلب أنعام وتصعد الدم حارا الى وجهها حتى كانت الساعة الخامسة فأقبلت معها عربة يجرها جواد مطهم وقفت من الدار وهبط منها شاب فى الخامسة والعشرين من عمره وسيم الطلعة ، مشرق المحيا ، يرفل فى حلة أنيقة فاخرة ، تلوح عليه دلائل النعمة والجاه ٠ وما ان وقعت عليه عين الأم حتى تطلق وجهها وابتسمت جوارحها وأشرق محياها وتمتمت فى نشوة :

ــ شبابه ! ٠ محفض ومنصان لأمه ! ٠

ثم قالت لأنعـــام وهى تنظر الى وجههـــا الذى خضبه الخجل والاضطراب :

ــ أنا مش قلت من زمان ٠٠ سعيدة من يومك ٠٠

وما ان لمست يد الزائر المسكن الخارجي حتى فتح له البـــاب على مصراعيه واستقبله الليثى أفندى متهللا مرحبا يجره من يده جرا الى الداخل نحو غرفة الاستقبال فأجلسه على أحسن مقعد مريح فيها • وأقبلت الست فطومة بعد لحظات تتيه في فستانها البنفسجي اللامع الملتصق على جسدها • وما ان رأته حتى أقبلت عليه في لهفة وحيته في حرارة وهي تقول :

ـ آنست ! ونورت البيت ! خطوة عزيزة ياحضرة المهندس •

ولم تنتظر ليرد عليهـــا التحيـــة ، بل تركته وانصرفت تهرول لتحضر له القهوة وهي تقول :

ـ دا احنا النهارده زارنا النبى •

ثم عادت وبين يديها صينية أم رمضان الصيني وعليها الفناجين الحمر وكوبة المـاء الزرقاء الشبيهة بالبرميل وناولته الفنجان وهي تقول وتدارى خجلها :

ـ كان نفسى أعمل لك أنا القهوة لكن أنعام قالت لازم تعملها بايدها •

ثم وضعت الصينية وجلست بجواره تكتم فرحتها بينما وقفت انعام ترقبه بدقة من ثقب الباب •• ومضت لحظة أخرج الليثى أفندى فيها علبة الســجاير المـكنة ، وناول الضيف واحدة فتقبلها شاكرا وهو يخرج من جيبه بطاقة كبيرة مزخرفة ويقول :

ـ يسرنى أن أتشرف بدعوتكم غـدا لحضور حفلة زفافى التى ستكون في بيت العروس ٥ شارع أبو المعالى ، ثم نهض قائلا :

ـ وقد رأيت أن واجب الجـوار يحتم على أن أقـدم لكما بنفسى الدعوة •

شيء واحـــد هو الذى جعل وقع الصدمة يعم حتى بلغ غيرهم من سكان الدار ، ذلك أنه بينما كان المهندس الشاب يهبط الدرج منصرفا ، كانت الست فطومة تغادر الغرفة فتعثرت في خطوتهـــا فسقطت من بين يدها الصينية الصيني وتحطمت مع الفناجين الحمر •

طفل

كان الليل قد أقبل ، وهى لا تكره شيئا مثلما تكره اقبال الليل فى هذه الأيام السود ، وكانت لا تزال فى مكانها لا تفارقه ، منذ أول النهار الذى انقضى ، وأين تذهب وقد تقطعت الأسباب بينها وبين الدنيا منذ عشرة أيام ، منذ اليوم الذى مات فيه زوجها والذى كان ينتظر له كل شىء الا الموت ، ومن ذلك اليوم الذى مرض فيه طفلها • والذى كان ينتظر أيضا كل شىء الا المرض ، فقد كان صحيحا معافى ، حلو القسمات ، مشرق البسمات ، لا ينى ثغره الوليد يضحك ويبتسم لكل غاد ورائح •

وهو لم يمرض حزنا على أبيه الذى افتقده لأنه لم يكن يعرف بعد ، ان فى الدنيا شيئا اسمه الموت واليتم والحزن ، وهو لم يمرض أيضا لأنه أصيب بعلة من تلكم العلل التى يصاب بها الأطفال عادة • وانما مرض لأن ثدى أمه لم يجد عليه بشىء من ثلاثة أيام مضت ، ومن أين يجود ثدى لم تجد صاحبته ما تتبلغ به ان هى أصبحت ، أو ما تسد به الرمق ان هى أمست ، ومن أين تجد « عائشة » الرغيف الذى تتبلغ به بعد أن قضى زوجها وسقط صريعا فى ذلك الميدان البشرى الذى يقتتل فيه الجميع على الرغيف ، والرغيف لا يظفر به فى هذا الزمن الا من كان ذا قوة وبأس شديد ، أو كان مستباح العرض مثلوم الشرف ، ولم يكن زوج عائشة من هؤلاء ولا هؤلاء ، لذلك مات منذ عشرة أيام غير آسف الا على هذا « الطفل » الذى لم يعرف كيف ستحصل له أمه على الرغيف ، أو كيف سيحصل عليه هو ان كتب له أن يعيش فلاحا فى ريف مصر ، كما كتب على أب له من قبل •

وهذا ما فكرت فيه عائشة أيضا عندما مات زوجها ، وعندما أقبل هذا الليل الموحش ، واكتنفت ظلمته كوخها الحقير ، الذى تتقاذفه

الرياح من الجهات الأربع • بيد أن هذا التفكير لم يطل بها فى هذه الليلة ، لأن صراخ الطفل أخرجها عن صمتها ، وجعلها تنسى كل شيء الا هذا الصراخ الذى يشبه عواء القطط الجائعـة • والذى انفطر له قلبها ، وأتعبها ، كما أتعبت شفاه الطفل ثديها الجاف ، الذى لولا التصاقه بصـــدرها لظنه الرائى خرقة من تلكم الخرق الرثة البالية التى اتخذت منها الأم لفائت لفت فيها جسد الطفل المقرور •

ولما لم ينقطع صراخ الطفل ، الذى راح الجوع ينهش أحشاءه الرخوة الطرية فى شراهة وقسوة ، حلا لأمه أن تغالط نفسها ، وكثيرا ما يلوح للتعساء مغالطة أنفسهم وهم فى أشد اللحظات حرجا وضيقا فقد قامت فى عتمة الليل تجوس خلال الكوخ المتهدم المظلم ، الذى كدس فيه الليل سواده ، بعد أن فاضت ظلمته على الكون ، وراحت تبحث وتنقب لعلها أن تجد فيه شيئا يسد رمق الطفل ، مع أنها تعلم تماما أن شيئا من الذى يتبلغ به الناس لم يدخل كوخها منذ ثلاثة أيام ••• غير أن الطبيعة التى تشفق على أمثال عائشة أحيانا ، أو تسخر منها أحيانا ـ لا أدرى ـ قد بعثت اليها فجأة بشيء ثمين ، فقد اصطدمت يد عائشة مصادفة بكسرة من الخبز سوداء جافة ، لا تدرى كيف عثرت عليها ، ولا كيف بعث بها القدر اليها فى هذه اللحظة الحاسمة من حياة طفلها الوحيد ، فقدمتها اليه فرحة مبتهجة مسرورة ، وكأنهـا تقـدم له بيمينها سعادة الدنيا مجتمعة فى هذه الكسرة السوداء ، وما أن تناولها الطفل حتى تبسطت أساريره ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة نورانية كادت الأم تبصر نورها فى ظلمة الليل البهيم •

وكف الطفل عن العويل والصراخ ، وراح وهو فى حجر أمه يقضم منها قضما متواصلا و « يدغدغها » كما « يدغدغ » الفأر فى الليل شيئا ثمينا فى الخفاء وكلما تعبت أسنانه الرخوة التى لم تتكامل بعد ، تركها وعاد الى الصراخ والعويل ، وكلما عضه الجوع عاد اليها

ثانية وواصل القضم فى الظلام ، وهكذا ظل الساعات الطوال حتى تعب آخر الليل فسكت عن الصراخ والقضم معا ٠

ولما أقبل الصبح ، وتسلل نوره الى قلب الكوخ واستطاعت الأم أن تبصر وجه طفلها ، وجدته ممسكا بين يديه بقطعة من خشب أسود كانت قد سقطت من سقف الدار المتآكل ، وهى بيدها التى ناولته اياها فى ظلمة الليل الحالك ٠

شىء واحد هو الذى أذهلها عن نفسها ، أو أذهل نفسها عنها ، ذلك أنها عندما همت جزعة بأن تنتزع قطعة الخشب السوداء من بين أسنانه التى تكالبت عليها ، لم تستطع ذلك لأن الطفل كان جثة هامدة٠

~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~

علاوتان ودرجة

كان له سبعة عشر عاما يعمل فى ديوان الحكومة ، كما يعمل حمار الوسية في الحقل · وما كان من فرق بين الاثنين الا فى الرزق ، الحمار يأكل وهو يجوع ، والحمار يرتع وهو مقيد ، والحمار أعزب وهو متزوج ، أربعة جنيهات عين بها كاتبا فى الوزارة وكان فى ذلك الوقت وحيدا لا زوج له ولا أولاد ··· ومرت الأيام ، ودارت عجلتها المشئومة وأصبح ذا زوج وأولاد ، زيد العمر سبعة عشر عاما وزيدت الأسرة سبعة أشخاص ، وزيدت الجنيهات جنيهين ، كل شىء تغير تغيرا ملموسا الا وهو ورزقه ، حتى عم أحمد الفراش مات وجىء بغيره ، حتى لون المكتب الذى يجلس اليه أحالته الأيام من أصفر لامع الى أسود باهت ، حتى الزملاء كم منهم من أقبل صغيرا وأدبر وهو كبير ·

حتى الرؤساء تغيروا وتبدلوا وتعاقبوا ، وجىء أخيرا بزكى أفندى أستغفر الله ، بل صاحب السعادة زكى باشا ، زكى الذى عين معه فى يوم واحد ، وكان يوما يقطن معـــه فى حى واحد ، ومع ذلك أصبح صاحب السعادة وأصبح رئيسه الأعلى ، لا يطمع يوما أن يتشرف بالمثول بين يديه ، أصبح صاحب الأمر والنهى فى الوزارة بيده أرزاق الناس ومصائرهم ، يعطى ويمنع ، ويوصل ويقطع ، ويرضى فترضى الدنيا ، ويغضب فتتنكر لك فى زى بشع ينخلع له قلبك ·

كل ذلك وهو لا يزال كاتبا فى الأرشيف بستة جنيهات قابلة للنقصان ان هو تأخر يوما عن الميعاد خمس دقائق · كل ذلك ولا فرق بين الاثنين فى شىء ، الا أنه من أبناء الشعب ، وزكى من أبناء البيوتات لذلك دارت عجلته شمالا ، ودارت عجلة زكى يمينا ، ولله فى خلقه شئون ، وللقدر فى تصاريفه عجائب ، وليت العجائب وقفت عند هذا الحد ، أو كانت وقفا على هذا الحد ·



« ووضع يده في جيبه ، وأخرج تلك الرسالة الغريبة المريبة الغامضة التى وصلته أمس غفلا من الامضاء ، وأدناها من عينيه ، وراح يقرأ للمرة العشرين »

وكان قد بلغ أول الطريق ، فوضع يده فى جيبه وأخرج تلك الرسالة الغريبة المريبة الغامضة التى وصلته أمس غفلا من الامضاء ، وأدناها من عينيه ، وراح يقرأ للمرة العشرين أو المائة بعد العشرين وهو لا يدرى « كن حذرا » ٠

وذو الشوق القديم وان تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا

هذا كل ما فى الرسالة ، ولكن ما معناه ؟ وما المقصود منه أو به ؟ أى غرام قديم وأى حب مفقود ؟ أى مشوق تعزى ، وأى مشتاق تمنى ؟ ترى من يكون هذا العاشق ؟ ترى من يكون هذا المعشوق ؟ ٠

ولكن ما علاقته هو بهذا ؟ ما الصلة التى بينه وبين هذا البيت القديم من الشعر ؟ هل هو المقصود به ؟ انه لم يحب فى حياته غير زوجته وهى بحمد الله لم تحب غيره ، ولم تبتعد عنه فى يوم لحظة ، ولكن ترى هل هى المقصودة بهذه الورقة ، بهذا البيت من الشعر ؟ ٠

وأقبل الترام ودوى أزيزه فى أذنيه فتذكر نفسه وتفكيره الآثم وخطأه البين ، فأعاد يده الى مكانها ، وصعد نفسا ألقى معه بما كان فى خاطره من ظنون سوداء ، ثم ركب الترام ، ومن ثم عاد أيضا الى الواقع الذى يؤذيه والذى يقض مضجعه ٠

ان ابنه فؤاد طردته المدرسة أمس ، لأن حذاءه متآكل وبذلته قديمة بالية وهو لا يستطيع أن يصنع له شيئا ، كل الذى استطاع عمله أنه باع السرير الذى كان ينام عليه ودفع لهالمصروفات المدرسية فماذا يعمل بعد ذلك ، لقد ذهب الى الناظر ، وكاد يبلل يديه بالدموع وهو يبثه شكواه ، وهو يفهمه أن القسط الذى دفعه للمدرسة قد اقتصده من قوته الذى باع به متاعه ، فماذا يصنع أكثر من ذلك ، لقد قال للناظر الحقيقة ٠ قال له :

« ان ابنه يجب أن يكون رث الثياب ، ممزق الحذاء كريه المنظر ومن الجور أن يحاسب على ذلك ، من الجور والظلم أن تطلب منه المدرسة أن يكون ابنه فى داخلها كالأبناء ، ما دامت الآباء فى الخارج غير الآباء ، من الجور أنيكون الذى نأخذ منه ولا نعطيه ، كالذى نعطيه

ولا نأخذ منه • ان العاقل لا ينتظر الحصاد من أرض حرم عليها الماء ولم تذق طعم الثمار مرة فى حياتها » •

قال ذلك كله للناظر ، فأشاح بوجهه عنه ، ولما أهم بأن يقبل يده مرة أخرى أمر الفراش بطرده فماذا يصنع بعد هذا ؟ ثم ابنته فقد ذهب بها الى المستشفى الذى فتحت أبوابه للفقراء والمساكين من أبناء الشعب فأعطوها نفس ذلك الدواء الذى أعطوه له أيام كان مريضا ، وأعطوه لأختها أيام كانت مريضة ، وأعطوه لأمهم أيضا ، بل ويعطونه لكل من ذهب اليهم • كأن المرض فى الدنيا واحد ، والدواء فى عالم الطب واحد ، ان ذلك المزيج السائل الذى يطلقون عليه مرة ــ راوند وصودا ــ ومرة ــ سلسلات ــ بل يطلقون عليه عدة أسماء وهو واحد ، كأن الوحدانية عندهم هى دواء الفقراء •

وكان قد بلغ الديوان ، فأسرع وجفف دموعــه التى كانت قد انحدرت من عينيه ، وجلس الى مكتبه شبه هادىء ووضع يده فى جيبه ليخرج المفتاح فاصطدمت أنامله بورقة فأخرجها فاذا بها « كن حذرا » •

فذو الشوق القديم وان تعزى　　　مشوق حين يلقى العاشقينا

وتناول قلمه وراح يواصل عمله اليومى ، وفجأة تذكر أمرا ، فألقى بالقلم وراح يفكر من جديد • هل تنجح زوجته فى مسعاها هذا الصباح ، لقد قالت له الليلة بعد أن طرد الولد من المدرسة ، وزادت العلة على البنت أن لها صــديقة فى الزمالك على صلة بحرم صاحب السعادة زكى باشا • فستذهب اليها وتشكو لها الحال وترجوها بأن تتوسط لدى الباشا عساه أن يصلح لهم الحال ، وعساه أيضا أن يوافق له على أسبوع أجازه ، يذهب فيه الى شقيقته الميسورة الحال فى الاسكندرية لعلها تعطيه شيئا يخلصه من هذا الضيق ولو الى حين

وبينما هو يفكر فى هذه الناحية بالذات ، ناحية منحه الأجازة ، والتى لا يمكن أن يوافق عليها سعادة الباشا بعد أن أمر بعدم منح أجازات للموظفين بحال من الأحوال ، ومهما كانت الأسباب ــ بينما

هو كذلك اذا برئيس المكتب يقبل عليه ويستكتبه طلبا بالأجازة وفق أمر سعادة الباشا ، واذا بالأجازة يوافق عليها فى الحال ، واذا به ينصرف الى بيته فرحا بهذه الأجازة التى يستبشر بالخير العميم من ورائها ، مهموما بأجر السفر ، وثمن التذكرة التى سيسافر بها ٠ ولكن زوجته حلت له هذا المشكل ، فقد بسطت له يدها وناولته خمسة جنيهات اقترضتها من صديقتها التى فى الزمالك وأذهلته المفاجأة ، وماتت نظراته على تلك الورقة الملونة الجميلة ذات الجنيهات الخمسة ومد أنامله وتناولها غير أنه حانت منه التفاتة الى وجه زوجته فاذا به مبلل بالدموع والى عينيها فاذا بها مقرحة منطفئة كجبينها المظلم المعتم وحين سألها عن هذا البكاء ، قالت وهى تكفكف عبراتها ٠ انها انما تبكى من فداحة ثمن الدين ٠ فقال دون أن يفهم :

ـ وهل للدين ثمن غير رده ؟ ٠

فقالت وهى تنصرف ذاهلة منهلعة القلب :

ـ ان نقطة الدم غير نقطة الماء وان تقابلتا فى الميزان !!

فقال وقد تبعها وربت على كتفها :

ـ ستسددين دينك قريبا ! وسأعود من عند شقيقتى أكثر فرحا مما تظنين ! وأحسن حالا مما تقدرين ٠

وفى المساء كان القطار يقطع به ذلك الطريق الطويل ، وبعد ثلاثة أيام أيضا عاد يقطع به نفس الطريق ٠ وأقبل على داره وكأن رجليه عصوين يتوكأ عليهما من هول ما يحمل من ألم وخيبة رجاء ٠ ان أخته خيبت أمله فيها ، ولكن على الرغم منها ، فزوجها الذى كان يشتغل فى الجيش فصلته السلطات منذ شهور وأصبح دون عمل ٠

ووقف بعيدا قبل أن يبلغ الدار فماذا يقول لزوجته ، وماذا يكون أمرها لو علمت بخيبته ٠ لقد بكت يوم أن استدانت ، فماذا يغدو حالها يوم أن تعجز عن السداد ؟ وماذا يعمل هو ؟ أيظل ابنه مطرودا من المدرسة ؟ أتظل ابنته مريضة ؟ أتظل هذه الدنيا كذلك سوداء

معتمة ؟ أتظل أنفاسه هكذا متدهورة وعقله الشارد فى غير موضعه ؟ أتظل أمعاؤه التى عضها الجوع هكذا خائفة تترقب واذا كان هو كذلك فما بال تلك الأمعاء الرخوة الوليدة . ؟ أمعاء فؤاد الصغير ، وفاطمة المريضة .. ؟

وفرت من عينيه دمعة فجففها ، وواتته فكرة سوداء .. ولكن اذا مات فهل ستموت معه تلك المصائب ؟ انها بلا شك ستجد من موته ومن ابتعاده مرعى خصيبا يعينها على البقاء فى الدار الى الأبد .. اذن فماذا يصنع . ؟ .

وأقبل الجندى الذى مر عليه فى الليل منذ حين فألفاه ما زال مكانه أو ألفاه يتقدم خطوة ويرجع خطوات وكأنه اشتبه فيه فناداه فرد النداء ومن ثم دلف الى البيت .

وبينما كان ينقر على الباب بيد مرتعشة مهزولة ، نقرا فيه خوف ، وفيه تهيب ، وفيه لوعة ، أحس بشىء فلمعت عيناه وتدهورت أنفاسه وتصلبت شعرات رأسه تحت طربوشه القديم الباهت الحائل اللون وكاد يسقط لولا أنه فتح الباب ومد له صاحب السعادة زكى باشا يده وحياه وهو يقول :

(مبروك يا عبد الحميد أفندى الوزارة منحتك علاوتين ودرجة) .

~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~

عيشة يا بلح

كان الضباب لا يزال مكتنفا القرية • حاجبـــا عيونها بغلالته الداكنة ، حينما تسلل منهـا حاملا على ظهره سفطه الملىء بالبلح لينظفه ويغسله في النهر ، حتى اذا ما قدمه الى زبائنه فى المدينة قدمه نظيفا غير ملوث •

وكان يسير على عادته فرحا مبتهجا بمولد الشمس التى اعتـادَ أن يحتفل بمولدها كل صباح ، وهو ينظف بضاعته فى النهر • غير أنه قبل أن يبلغ الشاطىء توقف عن السير وحول نظره ناحية الشمال فتراءت له مزرعة القصب المتاخمة للشاطىء ، واستطاع أن يتبين (الخص) الصغير المقام على رأسها كالنصب التذكارى ، والذى لاح له من بعيد وسط الضباب الكثيف المتراكم كنقطة ضالة فى تيه خضم غير محدود • ولكنه مع ذلك لما نظر اليه وأمعن فيه خيل اليه أنه يراه ، وأن نظراته قد لفت جوانبه لفا واستقرت عليه ، ثم هى تتسلل خلسة الى داخله • وتذهب باحثة متحسسة لتقع على ذلك الجسد الرخص المتمدد على حصير خشن من القش فتقف عليه حينا وكأنها تباركه وتحفظه بالرقى والتعاويذ •ولما تزودت نظراته بالنشوة التى تفيض على قلبه وتغمره ••• راح يجمع خيوط نظراته ويشدها فى رفق عن الجسد الغافى ثم من أعراش القصب التى بنى منها (الخص) ومن ثم عاود مسيره نحو الشاطىء مسرورا مرددا أغانيه الريفية الجميلة التى اشتهر بها فى القرية والتى كانت سببا فى رواج بضاعته فى المدينة •

وما ان بلغ ــ الموردة ــ حتى كان قد شمر عن ســـاعديه وجمع أطراف ثوبه البالى الممزق وحزمها على خصره ، ثم اندفع الى الماء دافعا

امامه سفطه الثقيل الذى راح يعمل فيه بيديه ، وهو أقوى ما يكون نشاطا ، وأقوى ما يكون سعادة خالصة لا ينقصها الا وجود الحبيب الذى راح يتساءل عنه بصوته العذب الجميل

صبح الصباح يا جميل وأنا على الموردة بدرى
كل البدوره بتورد وخلى لم ورد بدرى

غير أنه لم يكد يبدأ اعادة الأغنية حتى تناهى الى أذنيه صوت رقيق خفيف كأنه النسيم أوكأنه حفيف الزهر ، ينبعث فجأة من خلفه فانتشى له كيانه واهتز السفط الذى بين يديه فتراقص على الماء ·

ـ صباح الخير يا برعى ··

ـ صباح الخير يا عيشة ··

ومد يده مسرعا وتناول الجرة من فوق رأسها وهو يقول مغتبطا :

ـ لماذا استيقظت مبكرة هذا الصباح ؟ ·

فقالت وهى تجمع أطراف ثوبها الأسود الفضفاض وتدسها فى تكتها فبدا سروالها الأحمر القانى الذى تدلت أطارفه ذات الكرانيش المنتفخة المعششة تداعب ذلك الخلخال الفضى اللامع الذى نام مستسلما بين الساق والقدم :

ـ استيقظت على غنائك الجميل فجئت أصبح عليك وأساعدك فى غسل البلح واندفعت اليه فى الماء ، وأخذا يعملان معا فى تنظيف البلح وهما يلعبان ويضحكان حينا ، ويتذاكران أحيانا أيامهما الماضية ، وفضل هذه الموردة التى جمعت بينهما · فقد كانت تأتى اليها كل صباح لتملأ الجرة ، وكان يأتى اليها مبكرا ليغسل البلح ، وكانت تطرب لغنائه ، كما كان يطرب لطلعتها ·

وظلا كذلك أياما كان الحب يرقبهما فيها عن كثب ويتتبعهما فى شتى المراحل التى قطعاها على الموردة ، أو فى الطريق الى القرية · وحين اطمأن الى نقاء سريرته وطهارة قلبها ووجدها جديرة بالزهرة المقدسة ، تقدم منها خلسة · وغرس فى قلبها تلك الزهرة الطاهرة

التى أخذت هى على عاتقها تغذيتها ، وأخذ هو على عاتقه سقياها ، الى أن نمت وطاب قطافها فاتفقا على الزواج ٠٠٠

بيد أنهما انتظرا تذليل تلكالعقبة الكأداء التى اعترضت سبيلهما وهى الحصول على الجنيهين الباقيين من قيمة الصداق الذى اتفقا على أن يكون كبيرا ضخما ترضى به الأم العجوز المتكالبة على الدنيا ٠ والتى رغم اشرافها على الثمانين أبت الا أن تظل حارسة لمزرعة القصب التى استأجرها حديثا ذلك الجزار المثرى السمج الذى أتاحت له هذه الحرب أن يكون من كبار الأثرياء فى القرية ، والذى بهره جمال عائشة وفتنتها وسحر وجهها المشرق البسام ٠ فراح يتودد اليها محاولا اغراءها بأفانين العروض وشراء قلبها ولو بكل المال الذى يملكه ٠٠٠ ولكنها أعرضت عنه واحتقرته ، وأفهمته بلغة الصمت البليغ ، أن قلب المرأة غير قلب البقرة التى يشتريها بالمال ويعرض لحمها على الناس فى السوق ٠ ثم تركته وانصرفت الى برعى الذى يكاد الدم يتفجر من قدميه من كثرة تجواله طول النهار وأغلب الليل فى أزقة المدينة ودروبها الشبيهة بشقوق الثعابين ، ينادى على بضاعته ليجمع من ربحها صداق عائشة ٠ كما كادت عيدان الحطب تأتى على أطارفها وتأكل ثوبها الذى لا تملك غيره وهى تجنى من بينها القطن للناس بأجر قليل تعطى أمها العجوز أكثره وتختلس هى أقله وهو الذى يمكنها اختلاسه وتقدمه لبرعى وبذلك تساهم معه بنصيب فى جمع هذا الصداق الذى اتفقا على أن يكون كما قالت الأم ذات مرة ، خمسة جنيهات لا تقل قرشا واحدا ٠

جالت برأسيهماكل هذه الأفكار والخواطر ، وهما فى الماء ينظفان البلح وينظر كل منهما الى الآخر نظرات فيها الكثير جدا من الحب والحنان وفيها الكثير أيضا من الغزل الساذج البرىء الذى كانت تعبر عنه عائشة بعينيها السوداوين الواسعتين ٠٠٠ وحين تجده قد فهم ، تعود فترد عنه الطرف ضاحكة ، فتتقد جذوة الحب فى قلبه وتستعر نارها ، فتلمع عيناه وتهتاج عواطفه ٠

وانطلقت حنجرة برعى فى الفضاء الممتد أمامه ، وراح يغنى بصوته العذبَ الذى انتشى له الطير فى السماء ، وسكرت منه صفحة اليم وترنحت أمواجه وغدت تمر عليها مخمورة متمهلة لتستمع الى برعى وهو يردد :

بلدى أبو صير والتل الكبير وبنـــه
والورد عشش على خد الجميل وبنا
والبطن قشطة لفايف والعسل له قنا
أنا قلت يا جميل دوقنى العسل قالى
خذ بنت عيشة تعرف ليـــالى الهنا

وكأنها فهمت أنها المقصودة بهذا الغزل الجميل ، وهذا الوصف الرائع ، فاستدارت خجلة ، منكسرة الجفن ، متوردة الخد ، مسترخية الأهداب · ثم انصرفت تحمل جرتها ··· وانصرف هو مبتهجا فى طريقه الى المدينة يحمل على كتفه سفطه وينادى على بضاعته ·

وانقضى اليوم صافيا ، كما طلع صبحه مشرقا بســاما ، وحين أقبل المساء عادت عائشة من الحقل الذى كانت تعمل فيـــه فرحة مستبشرة كعادتها من يوم أن عرفت برعى وأحبته ، غير أنها لما عادت فى هذا المساء لم تجد أمها فلا هى فى ـ الخص ـ ولا هى فى مزرعة القصب ولا هى أيضا على جسر القناة تسقى البقرة ··· ولما سألت عنهـــا عرفت أنها فى القرية ، وأنهـــا تنتظرها هناك عند خالها الشيخ عطا ·

واستغربت عائشة لهذه الزيارة الغريبة التى دعت أمها أن تذهب الى دار شقيقها رغم الجفوة التى بينهما والتى حرمت على الشقيقة العجوز أن تدخل بيت شقيقها من سنين ··· ولكنها مع ذلك راحت تنقل الخطى نقلا الى القرية ، وما أن أشرفت عليها وطالعتها دار خالها حتى رأتها مزدانة بجمع كبير من أهل القرية يتوسطهم الشيخ مروان والمعلم خليل الجزار ·

وما لبثت أن ارتدت خائفة مذعورة حين رأت ذلك فقد ساورتها فكرة خبيثة كاد قلبها يسقط بمجرد التفكير فيها ... ولكن أيمكن هذا ؟ ... أيمكن أن يكون هذا الجمع الغفير الذى يتوسطه عمدة القرية انما اجتمع ليحتفل بتقديم الذبيحة الى الجزار ...

أيمكن أن تكون أمى قد ارتكبت فى حقى هذا الجرم . وأن خالى تراضى معها على حساب دنياى وحياتى وقلبى ... وسمعت فجأة الزغاريد تتصاعد مدوية ورأت الناس يشدون على يد المعلم خليل الجزار مهنئين مباركين فارتاعت وهمت بأن تغلق عينيها لتبعد عن خاطرها شبح هذا المشهد . ولكن ابنة خالها سكينة كانت قد أسرعت اليها واحتضنتها فى حنان وهى تقول :

ـ مبروك عليك العريس يا عيشة .

وجحظت عيناها وهى تحملق فى محدثتها وتتمتم

ـ عريس من . ؟

ـ عريسك أنت .

ـ من هو . ؟

ـ المعلم خليل .

وضحكت سكينة ... ثم أردفت :

ـ على سن ورمح ... « دفع فيك خمسين جنيـه مهر أكتر من عزيزة بنت العمدة .

ثم تركتها سكينة . وانطلقت تركض لتظفر بكوب من الشربات الذى يوزع على المدعوين .

وهو رأس عائشـة . الذى ألهبته الحمى على صدرها الخافق المضطرب ، ومن هناك عاودت سيرها نحو « الخص » تمعن فى مشيتها وكأنها تعد قطرات الدموع المتساقطة من عينيها وتحسبها قطرة قطرة . وألقت بنفسها فى ركنه المظلم تبكى قلبها الذى دهمه الخطب وحطمته الفاجعة ، وأزرت به ريح الأحزان العاصفة الهوجاء فأصابتها شبه اغماءة أذهلتهـا عن كل شىء حتى عن أمهـا التى كاد الفرح يتفجر ابتساما من عينيها .

وفى الصباح لم تستيقظ لأنها لم تنم • وانما أفاقت من ذهولها وتخلصت من ليلها الطويل القاسى ، وتناولت جرتها وغدت تركض الى ـ الموردة ـ تنتظر برعى الذى ضايقها أنه لم يسع اليها فى الليل ليسألها خبر هذا الخطب وتسأله أمر هذه النازلة • ولكنه لم يجىء أيضا فى هذا الصباح ليراها ولا هو جاء حتى ليغسل البلح ••• ولكن أين هـــو • ؟ أين ذهب • ؟ وأين انتهى به المطـــــاف •• ترى هل غادر القرية بلا رجعة ، أم ألقى بنفسه فى اليم ••• أم تراه قد فدحه الخطب وصرعه النبأ فطوح بجسده تحت عجلات ـ الوابور ـ السريع الذى يمر على القرية كالبرق • والذى حدثها مرات عنه وعن اعجابه بسرعته الخارقة •

وانسكبت دموعها غزيرة على خدها المقرور الذى تجمد ، وزاد فى انسكابها انها التقت فى طريقها (برمائة) ابنة صاحب مزرعة النخيل التى يتبضع منها برعى كل يوم ، وأخبرتها أن برعى لم يأت البارحة للمزرعة كعادته ، ولا اليوم ليأخذ بضاعته • ورجعت محزونة الى الخص ، فوجـــدت أمها وخالها الشيخ عطا وابنتـــه سكينة فى انتظارها ••• وما هى الا دقائق حتى ساقوها الى بيت خالها فى القرية لتمكث فيه حتى تخرج منه (بالمزيكة) الى بيت العريس

ومرت أيام • قضاها أهل القرية يعـدون الساعات ويحسبون الدقائق انتظارا لطلعة هذا العرس الذى سيفيض منه الخير على القرية وقضتها عائشة تبحث بالدموع وحسرات القلب عن حطام الحبيب الذى ابتلعه اليم أو أكلته عجلات القطار •

وأقبل المساء المشئوم الذى ازدانت فيه دار الشيخ عطا بالأعلام والثريات احتفالا بليلة (الجلوة) التىتسبق الزفاف ، ولم يبق سوى هذا الليل الذى تخضبت فيه عائشة وارتدت فيه الثوب الحريرى الأحمر لتذهب فى الغد العروسة الى بيت العريس • أو على حد تعبير عائشة لنفسها تذهب الشاة الى بيت الجزار • ولكن •• وقبل أن ينقضى هذا الليل الأسود الطويل شاء القدر أن يبرز برعى من ثنايا

العدم ، وأن تلتفت عائشة فجأة فتراه مارا من أمام الدار التى فتحت كل أبوابها فى هذه الليلة وما ان رأته حتى أشارت اليه مرتعدة اشارة استطاع برعى رغم اللوثة التى أصابت عقله أن يفهمها ، وما هى الا لحظات حتى كان ينتظرها على كومة عاليـــة من القش كانت خلف الدار · وما هى الا لحظات أيضا حتى كانت الحبيبة قد غافل قلبها الرقباء ، وانطلق يعدو بها الى سطوح الدار لتتزود من الذى تحب فى اللحظات القلائل الباقية من دنيا الهناء والحب ·· ووقف برعى مشدوها ينظر الى حبيبة قلبه وهى فى ثياب العرس الحمراء دون أن يعى شيئا ويسمع حرفا مما تقوله له عائشة فى الظلام ·· ولكن دمعة انحدرت من عين عائشة وكأنها كانت جذوة من نار سقطت على وجهه فأحرقته ·· هذه الدمعة هى التى أخرجته من صمته ، وأعادته قليلا الى حياة الناس ، وهى التى جعلته يقول وهو يبتسم من فرط ما يعانى من حسرة ولوعة :

ـ لقد استأجرنى أحد زبائنى فى المدينة لأجنى له ثمار نخيله نظير أجر فرحت به فرحا لا أحسب أن الله قد كتبه لمخلوق لأنه كان القروش المكملة للجنيهين لاستيفاء الصداق ·

ثم وضع يده فى قلب السفط الذى لا يفارقه ، وأخرج منه صرة انعقدت على كمية من القروش والملاليم وقطع فضية صغيرة كانت فى مجموعها تساوى الجنيهين وقال باكيا :

ـ عائشة ·· هذا هو صداقك قد حصلت عليه ··

فخلصت شفتيها من بعض الدموع التى تزاحمت عليهـا وهى تقول :

ـ ولكنهم باعونى لمن دفع الثمن مضاعفا يا برعى ·

ـ ولكنى أحبك يا عائشة ·· !

ـ ولكن القدر أبى الا أن يطعن القلب بمدية جزار ·· !

ثم أجهشت باكية وتناولت يده المقرورة المرتعشة وهى تتمتم :

ـ برعى ·· انس ·· انس ـ عيشة ـ انس طلعة الشمس عند الموردة وغسيل البلح فى المية ·

ثم تسللت فى الظـــلام تصغى الى قطرات الدموع التى كانت تتساقط على ثوب العرس الأحمر ·

وفى عصر اليوم التالى ·· بينما كانت القرية تفخر بأعظم عرس عرفته وكانت الأم تحتفل بأسعد أيامها ، وهى ترى ـ الموكب ـ تتقدمه « المزيكة » والطبول تدق دقات الفرح · والهودج يتهادى بالعروس ، فى طريقه الى بيت العريس · كان برعى يرى جالسا على ناصية زقاق ضيق من أزقة المدينة منطويا على نفسه ينظر الى سفط صغير أمامه به حفنة من البلح الأسود الحامض ، قد تكدس عليها الذباب · وهو يتمتم مغنيا :

صلاة النبى على عيشة · وبلح عيشة ·

ياريت يوم الوداع ما كان يا عيشة ·

الحلوى المسمومة

غصت قاعة المحكمة بعدد كبير من الناس توافد اليها مبكرا ليشهد تلك القضية الغريبة التى ألبسها ظرف الحادث وصمت الجانى الذى أبى أن يدافع عن نفسه رغم اعترافه بالجريمة ثوبا من الابهام والغموض • وليرى ذلك المجرم الآثم الذى سولت له نفسه الشريرة الاعتداء على حياة رجل من خيرة رجال المدينة وشخصية من أبرز شخصياتها الفذة على مالها فى نفوس الجميع من مكانة مرموقة مقدسة ، بما اتصف به صاحبها من كرم وسجايا وبما له من نفوذ وشهرة واسعة •

وما أن دق الجرس معلنا بدء المحاكمة حتى تزاحم الناس وامتلأت المقاعد والردهات ثم جىء بالمتهم مكبلا بالسلاسل الحديدية فى حراسة جنديين مدججين بالسلاح مرتديا لباس السجن الأزرق الخشن الذى ظهرت على مكان الصدر منه شارة حمراء تعلوها قطعة صغيرة من النحاس مرقومة ٢٦ • وكانت تلوح عليه وهو يجتاز الممشى المؤدى الى القفص ذى الأعمدة الحديدية الطويلة مخايل السهد المتسم فى عينيه الذابلتين تعلو جبينه العريض المنبسط مسحة من الكآبة قد تركت فى هلال جبينه اللامع أثرا ظاهرا يميل الى الظلمة كتلك الآثار العابرة التى تتركها الأنفاس على المرآة •

وبدت على ثغره ابتسامة غريبة غامضة ظلت تحوم حينا حول شفتيه المطبقتين وقد أضفت هذه الابتسامة الراقصة على وجهه الأبيض الذى كستة لحية كثة مغبرة شيئا من الهدوء والاطمئنان وشيئا آخر من الرجاء والأمل فى عطف الناس الا أنها توارت فجأة وغرقت فى ثغرة بمجرد أن رأى عيون الحاضرين تصوب سهامها النارية البغيضة

اليه وهي تكاد تخترم صدره من فرط ما تحمّل اليه من مقت وبغض وكراهية •

وقد تضاعفت هذه النظرات وزادت حدتها عندما وقف الاتهام ولخص ظروف الحادث بأن المتهم وهو شاب فى الخامسة والثلاثين من عمره يشتغل عاملا صغيرا باليومية فى شركة أوتوبيسات غرب الدلتا ••• دخل فى اليوم الثـالث من التحاقه بالعمل على سعادة الزعفرانى بك محمد مدير عام الشركة فى مكتبه قاصدا قتله بأن طعنه بآلة صلبة أصابت الرأس وأحدثت فيه كسرا مضاعفا بالجمجمة مع فقد ادراك على أثر رجة مخية • وقد ضبط المتهم فى الحال متلبسا بجريمته التى اعترف بها فى جرأة غريبة تدل على تأصل نفسيته فى الاجرام •

ثم أخذ الاتهام بعد ذلك يقيم الأدلة والبراهين ، متخذا من صمت الجانى حجة على تحريض الغير له ، مبينا ما للمجنى عليه من مزايا ، وما له من أخلاق ، وما كان ينجم عن فقده ، لو تحققت رغبة الجانى ، من خسارة فادحة للشركة التى يحافظ على أموالها وللمجتمع الذى كرس حياته لخدمته • ولما انتهى من مرافعته القوية المجلجلة وسط اعجاب الحاضرين حاولت هيئة المحكمة أن تخرج المتهم عن صمته ، وتنتزع من بين شفتيه ولوكلمة واحدة تكشف لها عن السر فى ارتكاب الجريمة وتميط لها اللثام عن القضية ، وتبدد الغموض المخيم على التحقيق • بيد أن كل محاولة منها حول هذا الأمر كانت تنهب عبثا ، لأن المتهم بعد اعترافه الصريح بالجريمة كان يجيب على كل سؤال يوجه اليه بالصمت أو بما يمت الى الصمت بأقوى الصلات •

وتقضت لحظة مال فيها القضاة على كراسيهم وخفتت فيها الحركة واصطرعت فيها الأوهام ، ولعبت الآمال العراض أدوارها على مسرح الصمت الرهيب ، وألقت العيون خيوطها على شفاه القضاة الثلاثة ، وتفتحت الآذان ، لتسمع كلمة العدالة مدوية • وعلى حين فجأة انبعث

من ثنايا السكون صوت القضـــاء يعلن الناس بسجن المتهم خمس سنوات ٠

وانصرفت هيئة المحـــكمة هادئة مطمئنة ، وعلى الأثر انصرف الناس فرحين مهللين ولم يبق فى القاعة كلها الا المتهم نفسه ممسكا بقضبان قفصه الحديدية ، وجيء بعد قليل بعربة السجن الكبيرة وحملت ضيفها الجديد الى تلك الدار التى أقيمت فى طرف المدينة وأعدت هناك لتأديب الناس وتهذيب النفوس ، وتصادف أن العربة كانت خالية الا منه ، وكان متعبا مكدودا ، مخدر الأعصاب ، مريض التفكير ، لايريد أن يرى كى لا يميز فيحس ويشعر ، فأغمض عينيه حتى عن أخته التى استقبلته وهم يقـذفونه قذفا الى داخل العربة صارخة مولولة ممزقة الثوب الرث البالى الذى ترتديه ، حتى هى لم يرها ولم يسمع صراخها ، بل لم يشعر بوجودها الا لحظة أن لطمها أحد الجنود لطمة قوية على رأسها ليحول بينها وبين العربة التى بدأت تتحرك وما زالت متعلقة بها ٠

هنا فقط أحس بوجوده وشعر بنفسه ، فبرقت عيناه ، وتقلصت أساريره ، وعرف أنه سجن خمس سنوات ، لا ليتعذب فحسب ، ولكن لتشقى وتتشرد أيضا هذه الأرملة الشابة مع صغارها الأربعة ٠

وهم بأن يراها من خلال نافذة العربة الضيقة المحدودة ، ليسر اليها كلمة التشجيع ٠ الا أنه رأى العربة قد مرقت به مروق السهم وخلفتها وراءها تنظر اليها والى رضيعها الذى هوى من صدرها الى الأرض عند ما افقدتها اللطمة القوية توازنها ٠

ولم يتأذ قلبه لأختــه التى رأى بدء حياتها بعده وصورة فراقها له بقدر تاذيه للطفل الصغير وهو ملقى على الأرض يئن بين أقـــدام المارة ، لأن أمه قد شغلت عنه حينـا بالعربة التى تحمل آمالها ، وأراد أن يثأر له ، وأن يكيل للجنـدى بنفس الصاع الذى كال به لأمه ، فعلا صدره ، وصر على نواجذه ، وزوى ما بين حاجبيه ، وهم بأن يرفع يده ، فاذا بها مغلولة الى جنبه ، واذا بباب العربة الفولاذية

يدفع في وجهه دفعا ، ويحكم رتاجه الضخم الثقيل ، فحال بينه وبين كل شيء حتى الضوء الذى هو من حق الظالم والمظلوم قد حيل بينه وبينه ! ٠

ورأى الظلام المخيم فى قلب العربة الخاوى ، وفى أرجاء قلبه الملتاع ، فتراخت أعصابه ، وتفتتت قواه وانهارت ، وهوى بجسده على الأرض بعد أن ألقى بعنقه الى الأمام ودفن رأسه المحموم بين فخذيه مستسلما لعدالة السماء ، كما استسلم منذ لحظة لعدالة الأرض التى لم تنصفه ٠

ورأى نفسه وهو كذلك يرجع بدنياه الى سبع سنوات خلت ٠ وبصر بنفسه فى مرآة تلك الأيام فرأى شابا جميلا وسيما يرفل فى ثياب من النعمة ، ويتمتع برغد الحياة ونعيم العيش ٠

ورأى ضيعة أبيه فى الريف ذات التربة الطيبة والمروج الخضر ، تدر عليه ما يهيىء أسباب النعيم والرفاهية مضافا اليها ما يربحه والده فى كل عام من تجارته الواسعة ٠

ثم رأى أخته العزيزة ، وارفة الظل ، فينـانة الغصن ، ريانة الحياة ، تنعم بجمالها الأنثوى الفتـان ، وتتمتع بأوفر نصيب من السعادة بجوار زوجها الموظف الشاب الذى يعيش فى المدينة والذى أولته من حبها وحنانها ظلا أفاء على البيت كله ٠

ورأى كل هذه الوجوه تسطع فى سماء دنياه كثغر حسناء خلق للضحك ، ولتضىء ثناياه اللؤلؤية القلوب المعتمة المحزونة ، ثم اذا به يرى فجأة هذه الدنيا الوادعة تتنكر لهذه الأسرة المرحة الطروب فى زى عملاق غليظ القلب لا يعرف شفقة ولا رحمة يقيم بينها حينا ولم يتركها الا بعد أن أهوى بمعوله على أم رأسها ، فاجتث سعادتها وهناءتها ، وكان أن ترملت الأخت لثمانية أشهر مضت على فقد أبيها الذى مات عن تجارته الخاسرة ، وضيعته الذاهبـــة ، وأملاكه التى تلاشت فى مدى أشهر وبضعة أيام ، ورأى نفسه يقف وحيدا وسط ذلك كله حائرا ينظر ذات اليمين وذات الشمال عله يرى أحدا يسر

اليه حتى بشكواه ، لأن الناس قد تغيروا ولاحوا لعينيه فى زى غير الذى كان يراهم فيه ، حتى الأصدقاء تبدل ثوبهم بآخر لم يعهده ولم يألفه من قبل ، وحتى العشيرة نأت عنه بعيدا وأوسعت الشقة التى بينها وبينه خشية أن يبسط لها يده ٠

ثم رجع ببصره وهو حسير الى داره التى سيحتلها المالك الجديد بعد أيام ، فوجد الأطفال فى ساحتها يلعبون ويضحكون كشأنهم يوم مات أبوهم فلم يكونوا ليعرفوا بعد أن فىهذه الدنيا شيئا اسمه الموت واليتم والجوع ٠ ورأى أمهم ترقبهم عن كثب دامعة العين فى هلع وحسرة لا يعرفهما الا الذى أخنى عليـه الدهر ، فذهب اليها وشد على يدها مذكرا اياها بأن الله لم يخلق الاخـوات من رحم واحـد الا لحكمة تعرف بعد فقـد الأبوين ، ثم أسر اليها بأنه يزمع الرحيل والضرب فى بلاد الله الواسـعة التى لا بد من أن يكون فيها من يؤوى الفقير ويطعم المسكين ويتصدق على اليتامى ٠

وأشارت عليه بأن يذهبا الى المدينــة ، ففيها من أسباب الرزق ما قد يهيىء لهما اللقمة ، وفيها من الأصدقاء البررة الأوفياء لزوجها الفقيد من فى مقدوره أن يحدث لهما فى سمائهما المعتمة فجوة يطل على الأطفال منها الرغيف ، فركن الى رأيها وتسلل بها ليلا حتى المدينة التى راح يضطرب فى عبابها ٠

ولشد ما كانت دهشته ، اذ رأى الناس فى المدينــة هم الناس فى كل الدنيا ، يزدرون الفقير وينبذونه ، وأن الوفاء فيها مثله فى كل الدنيا ، لا يصيب الفقير ولا اليتيم ولا المحتاج ، ورأى نفسه فى المدينة كما كان فى بلده يتخبط وسط بيداء دنيا مترامية يكاد قيظ الهاجرة فيها يأكله ويأتى على تلك الأرمل المنحنية على صغارها الجياع ، ومع ذلك أخذ يضرب فىأنحائها ويخوض عبابهالعله يعثر على الرغيف الذى يتبلغ به ، ولأمر ما يضرب الفقير على غير هدى ، ولأمر ما أيضا يتطلع الأعمى الى البدر ٠

وتصادف أنه كان يقوم يوما باحدى جولاته الخائبة فأبصر بمركبة تحمل رجلين عرف أحدهما وكان صديقا له من زمن بعيد يرجع الى

فجر شبابه الندى • وعرف الثانى شكلا لأن كل الناس كانوا يعرفونه ويتقربون اليه وكانمديرا لشركة الاتوبيسات التىفتحت أبوابها لآلاف الناس وما أن رآها حتى رقصت أمانيه على متن الآمال الخلابة وتألق جبينه واشرق محياه ثم أخذ يركض مسرعا خلف المركبة ويتبعها حتى وصلت باب الشركة فغادرها المدير وهمت بأن تنصرف بصديقه فتعلق بها وأقبل على صاحبه ملهوفا وصافحه بحرارة ويد راعشة •

فانكره الصديق أول الأمر ، أنكر فيه هيئته الرثة وثوبه المهلهل وحذاءه البالى ، ثم عرف منه ما أنكر فأكرم وفادته وحين قص عليه قصته أنزله من نفسه منزلة حسنة مبعثها التهيب والخوف من انكار الزمن ، وكان أن رجع به فى الحال الى مقر الشركة وتوسط لدى مديرها الشاب الذى ما أن سمع باسمه وعرف دخيلة أمره حتى طلبه اليه واستقبله فى مكتبه استقبال العزيز المفضل آذنا له بالجلوس على المقعد الجلد الثمين رغم قذارة ثيابه • ثم أفهمه بأنه سيعنى به ويقربه اليه ويخصه برعايته اكراما لصهره الراحل الذى كان من أعز الناس وأدناهم الى قلبه •

ولما استخبره عن حاله كله وعن أسرته ومحل اقامته أمر بتعيينه فى الحال كمسارى بخمسة عشر قرشا لليوم الواحد ثم أمعن فى اكرامه فنقده جنيها من جيبه الخاص ليبدل ثيابه ويغير زيه • وانصرف من لدنه شاكرا فغشى داره وهو أسعد ما يكون من هذا اليوم الذى سيرى فيه الأطفال لاول مرة بعد فقد أبيهم يأكلون ويملأون بطونهم • وقضى أول أيام العمل على خير ما يقضيها موظف جديد ولما ذهب فى مساء اليوم الثامن الى مكتب الشركة ليسلم الايراد حسب التعليمات اذا به يسمع عن طريق غير مباشر اسمه تلوكه الألسن ويتشدق به بعض العمال فى غمز مهموس وتلميح مشير الى أن تعيينه واهتمام الزعفرانى بك به يرجع الى عشق قد استيقظ فى قلب المدير فجأة وعاد من جديد يخامره ويدفعه دفعا الى تلك الحسناء الناضجة

شقيقة هذا العامل الجديد التى هام بها وأوشك أن يكون على صلة بها لولا فقد زوجها المفاجىء ورحيلها عن المدينة •

وأصغى الى همسهم باهتمـام وهو ينتقل من واحد الى آخر على أسلاك الضحكات الساخرة مؤيدا بالحجة والبراهين التى أقنعته مضافا اليها اهتمام المديرية من غير ما سبب يشفع به ، وما أن تخيل ما سمع حتى التهبت نظراته فجأة وأخذت توزع حممها على أولئك الساخرين • وتسلل من بينهم خائفا يترقب وانطلق الى الشارع الذى غمره هواؤه الطلق الذى أيقظ حواسه وحرك مشاعره وفعل بها فعله بالمخمور الذى لا يحسب له حســابا • ومشى مترنحا وكلمــا أبصر باثنين فى الطريق يتحادثان أو يتهامسان ظنهما يتحدثان عن عرضه الذى قدمه اليوم قربانا على مذبح الوظيفة •

وبلغ داره فاتخذ سبيله مباشرة الى مخدع أخته النائمة بجانب صغارها • فتفرس فيها وعلق بصره بجسدها الرخص الممتلىء الملقى على حصير قذر من القش • ووجدها مستسلمة الى نوم متقطع غير متصل تنتاب جسدها الفينة بعد الفينة هزة عارضة تجعله ينتفض مرتعدا حينا وينفرج مستسلما أحيانا فخيل اليه أن الشهوة الجامحة تراودها أيضا فى نومها وتصب نارها المتأججة فى هذا الجسد الذى تصوره جيفة عفنة يجب أن تتوارى قبل أن تبقر فتعم رائحتها الكريهة فتقدم اليهــا فى خطى ثقيلة رزينة مكشرا عن أنيــابه فاتحا عينيه متصلب شعرات الرأس حتى لكأنها سكاكين متحفزة فى أيدى جبابرة عتاة وهم بأن ينقض عليها •

بيد أنه تراجع وهدأت ثائرته رويدا عندما اقترب منها ولمح عينيها المسبلتين مبللة بالدموع ورأى آثار الدمع ظاهرة على صفحة خدها الأملس فأحدثت عليه شبه قنوات انساب منهــا الدمع الى الوسادة الخشنة فبللها هى أيضا بدموع القلب الدافئة وحين أيقظها فى هدوء وسألها سر اكتئـابها أخبرته بأن مدير الشركة التى يشتغل فيها قد أتى الى الدار عصر هذا اليوم ووقف بسيارته الفخمة أمامها وطلب

مقابلتها فأنكرت وجودها وكان مع الأطفال لطيفا للغاية حتى أنه نقدهم جنيها وانصرف على أن يعيد الكرة مرة أخرى • ثم راحت تقص على شقيقها فى اخلاص كيف أنه كان يصبو اليها فى عهد زوجها الذى صادقه وتودد اليه لهذا الغرض ولما أحست هى سر تلك الصداقة الدنسة أطلعت زوجها على الحقيقة فقاطعه على الأثر •

ثم مدت يدها الى الوسادة المبللة بالدموع وأخرجت من تحتها ورقة من فئة الجنيه ناولتها له فأطبق عليها يده وظل الى الليل يتفرس فيها وفى الصباح صمم على الذهاب الى الشركة وتسليم ما بعهدته ليتخلص من هذا العمل الذى يراد به أن يدفع ثمنه غاليا • ومع وصوله الى مكتب الشركة طلبه المدير قبل أن يعرف عزمه وأمره فى قحة أن يبعث بأخته الى داره لتكون هى الأخرى فى خدمته فلم يشعر الا ويده تتصلب على التمثال البرونزى الموضوع على المكتب وقذف به فى قوة الى رأسه • ثم وقف ينظر اليه وهو يتمرغ على مكتبه والدم يتفجر من جبينه وغاظه أن الضربة لم تصب منه مقتلا فهم بأن يلحقه بأخرى فرفع يده وهوى بها ، ولكنها اصطدمت بجدار العربة التى تحمله والتى رآها تقف فجأة أمام باب السجن وهناك أسلمت حمولتها وانصرفت •

وقضى فى السجن خمس سنوات عجاف لم يبتسم قلبه فيها مرة واحدة ولم ير فيها أحدا يعرفه من أهل الدنيا حتى أخته لم يرها الا مرة واحدة قبل ترحيله من سجن المدينة الى السجن العمومى ولما انقضت هذه السنوات بلياليها وأيامها السود عمل ليوم خروجه ألف حساب فلا بد من أن يلقى شقيقته وسيلقاها فى أشتات من صور الشقاء التى تخيلها وأوضاع البؤس الذى تصوره •

كان لا بد من أن يلقاها على الأقل فى ثوبها البالى الممزق كما تركها ، ولكن لشد ما كانت دهشته اذ وجدها تستقبله على باب السجن فى صورة غير التى تخيلها فقد رآها كما كانت فى أيامها الأولى جميلة مشرقة تلوح عليها دلائل النعمة وترتسم على جبينها مخايل الرفاهية

التى تنم عن رغد العيش • ووقع بصره على جوربها الثمين وحذائها اللامع وثوبها الحريرى المتموج ورأى ذلك كله ووقف لحظة مكانه فاغرا فاه ينظر اليها وتنظر اليه ثم تقـــدم منها وقال وهو يمد يده ليصافحها :

ـ كيف حال الأولاد •

فأجابته بصوت خافت حبيس :

ـ بخير •

فقال :

ـ وكيف يأكلون ؟ •

فأطرقت الى الأرض وتمتمت شـفتاها وقالت بصوت مرتعش حزين :

ـ كما يأكل الناس !

وأطرق هو أيضا الى الأرض وساورته بعض أفكار خبيثة ما كاد يتصورها حتى احتبست أنفاسه وعلا صدره ولمعت عيناه ولكنه بدأ ينفيها عن شقيقته وانطلق وقد عقد ذراعيه المرتعشتين على بعضهما وحملهما على صدره المـكدود وتابع سيره ميمما وجهـه شطر دارهما القديمة وسارت هى الأخرى خلفه مطرقة تتخيل وتتصور •

ولم يفطن الى نفسه الا على صوت شقيقته تقول له :

ـ من هنا •••

فنظر اليها وقال :

ـ أتركت المنزل القديم ؟

فقالت وهى تشير بيدها الى الشارع الذى تريد أن تعبره :

ـ أجل تركناه من زمن بعيد ! •••

فحدجها ثم عاد الى اطراقه وعاود سيره • ولكنه لم يمش طويلا فى هذا الشارع الكبيرحتى استوقفته عند باب احدى عماراته الضخمة وأشارت اليه بالدخول فنظر اليها مرة والى العمارة مرات وقال :

ـ أهنا تقطنين ؟ •

فقالت ـ أجل •

فصمت قليلا ولكنه التفت اليهـا وقال وهو يجتاز بهو العمارة الفسيح :

ـ هل تزوجت ؟ •

فقالت وهي تنكس راسها وتسبل عينيها :

ـ لا !

وفتح له باب المسكن ووقع بصره على ما فيه من رياش فاخر وأثاث ثمين وبصر بالمائدة وكان عليها بقايا من عظم الدجاج وفضلات من شرائح الضأن ، فلم يصدق ما رأى فرفع احدى الصحاف الى عينيه وراح يتحسسه بأصبعه ويشمها بأنفه ثم وضعها مكانها ببطء وأقبل عليه الأطفال وتعلقوا به وأخذوا يلثمون ثوبه البالى ويده المرتعشة المقرورة وهو يتفرس فى وجوههم وينظر مرة الى ثيابهم المزركشة وأخرى الى بشرتهم النضرة •

وحانت منه التفاتة الى غرفة من غرف الدار ترك بابها مفتوحا ورأى بداخلها مشجبا مقاما بجانب سرير من النحاس الثمين ومقعدين كبيرين تتوسطهما سجادة من الصوف الخالص ورأى على المشجب رباطين من أربطة الرقبة وحلة رمادية جديدة وجلبابا من الحرير اللامع وأجال بصره بين كل هذا ثم سلطه فى عينى شقيقته وقال :

ـ لمن هذه الغرفة ؟ •

فقالت وهى ترتعد وكأنها تبحث عن شىء عند قدميها :

ـ لسعادة الزعفرانى بك •

وما ان سمع هذا الاسم حتى تراخت قواه وهوى بنصفه الأعلى على المائدة يردد هذا الاسم وهو يهذى بكلمات لم تسمع منها سوى :

ـ وهل هو يقطن هنا أيضا ؟ •

فأجابته بالنفى ولكنه أعد هذه الغرفة ليبيت فيها ليلة أن يكون فى المدينة وهو ينقدنا أجر نومه لنطعم الأولاد •••

فحول بصره عنها وأغمض عينيه ولكنه فتحها بعد حين على صراخ الأطفال وهم يتشاجرون على قطعــة من الحلوى يريد كل منهم أن يختص بها لنفسه فذهب اليهم هادئا وتناول قطعة الحلوى وقلبها فى يده ونظر اليها طويلا فخيل اليه أنه يرى فيها صورة الزعفرانى بك مع شقيقته ثم رأى صورة الأطفال وهم يتهافتون عليها ٠

وظل كذلك لحظة ثم تنــاول سكينا من على المائدة وأخذ يقسم عليهم قطعة الحلوى (المسمومة) بالتساوى ٠

ولما رآهم يأكلون راضين فرحين تركهم متسللا وأخذ يهبط الدرج ولكنه وقف بعد حين ٠ فقد التقى عفوا بنافذة مفتوحة تطل على الناس يغمرون الطريق فراح يتأملها وينظر اليها ويمعن فيها النظر وهو يضحك ملء شدقيه ٠

شىء واحد هو الذى شغل الأطفال الصغار عن التهام قطع الحلوى اللذيذة الطعم ، ذلك أنهم سمعوا فجأة دويا هائلا يشبه دوى الجسم الصلب عندما يسقط متناثرا على الأرض ٠

~~~~~~~~~
~~~~~~~~~

ثورة الآلهة

الأشخاص

١ ـ كرايزيس : ربة الموسيقى .
٢ ـ باكيس : وصيفة كرايزيس .
٣ ـ نوكريتس : كاهن المعبد ، والأب الروحى لكرايزيس .
٤ ـ مانو : عشيق .

المنظر

(جناح ربة الموسيقى فى معبد الفن القائم فى الصحراء حيث كرايزيس والوصيفة باكيس .
عند رفع الستار يسمع صخب وضجيج واصوات تتعالى لا يميز منها شىء) .

كرايزيس : (فى ضيق) ما هذا الصخب والضجيج الذى اسمع ؟.
باكيس : ان عشاق فنك ياربة الفن برح بهم الشوق ، فحجوا الى معبدك ركعا وسجودا .
كرايزيس : (فى نفس الضيق) اغلقى الشرفة .. اغلقى الشرفة .. وليسدل الصمت ستائره على المعبد .
باكيس : (وقد اغلقت الشرفة فتلاشت الاصوات) ان منهم ياربة الفن من جاء من أقاصى الصحراء لـ ..
كرايزيس : (مقاطعة) ليطرب أليس كذلك ؟ !
باكيس : وليخر ساجدا على أنغام قيثارك ، ويسبح هائما على صوت مزمارك .

كرايزيس: (مخاطبة نفسها) ويسبح هائما على صوت مزمارى !
« الصخب والضجيج يسمع من مكان سحيق » .

كرايزيس: (ثائرة) ما كل هذا ؟ ما كل هذا ياباكيس ؟! .

باكيس : لقد برّح بهم الضنى فراحوا يهتفون باسمك سكارى .

كرايزيس: ومع ذلك لن أعزف لهم شيئا .

باكيس : ان لهم ثلاث ليال يهيمون غراما .

كرايزيس: ولى عشر اصلى من اجلهم نارا (ملتاعة) ان النار تكاد تحرقنى ياباكيس .

باكيس : (نافية) معاذ الله أن تمسسك نار ياالهتى .

كرايزيس: (هائمة) نار الشوق الى ذلك المجهول تكاد تقتلنى .

باكيس : انها ضريبة العشاق ياربة الفن .

كرايزيس: (حالمة) الى عشاق ياباكيس ؟!

باكيس : عشاق مزمارك ياربة الموسيقى . انهم يسعون الى معبدك كما تسعى الفراشات فى الليل الى معبد النور .

كرايزيس: (ساخطة) تباً لهم ، انهم يريدون وأد قلبى ياباكيس . وقد نسوا ان انفاسه هى التى تعطر لهم أنغام الناى .

باكيس : (ضارعة) ليحفظ رب الأرباب قلب الهة الفن . . ليحفظ رب الأرباب قلب الهة الفن .

كرايزيس: (محزونة) أيحرم الحب على من يرتله أنغاما ؟! أيحرم العشق على من يرسله ألحانا ؟! « تبكى » .

باكيس : (ذاهلة) رباه ! ماذا أرى ؟ الهة تبكى ؟! .

كرايزيس: لأن السبيل الى الضحك أعياها .

« تسمع جلبة صاخبة خارج المعبد »

كرايزيس: ما الذى حدث ؟ ما الذى حدث ؟!

باكيس : سأرى « تنصرف » .

كرايزيس: (وحدها) عجبت لناس هذه الدنيا ، يفرقون بين الزهرة والرى ، ثم يطلبون أريجها العبق .

« يتعالى الصخب والضجيج »

انهم يطلبون صوت مزمارى ، فهل اشفقوا على القلب المدنف الصادى .

« تعود باكيس »

باكيس : الهتى ...

كرايزيس : ماذا ياباكيس ؟

باكيس : نوكريتس كاهن معبدك وحافظ أسرارك ، يطمع فى المثول بين يدى الهة الفن .

كرايزيس : نوكريتس ؟ يا له من كاهن زرب اللسان جليل الخطر ، ماذا يريد منى ؟

باكيس : المثول بين يدى الهته .

كرايزيس : ليدخل .

« تنصرف باكيس ويدخل الكاهن »

الكاهن : ليرع زيوس الأكبر ربة الفن ويحفظها .

كرايزيس : تحياتى اليك ياأبى .

الكاهن : تحيات كاهن المعبد الى الهته .

كرايزيس : ماذا وراءك ياأبى ؟

الكاهن : عبيد فنك ياربة الفن . لكانى بهم حول معبدك يتزاحمون كالموج المصطخب .

كرايزيس : لهم تحياتى .

الكاهن : لقد اقتحموا ساحة المعبد .

كرايزيس : ماذا يريدون ؟

الكاهن : صوت مزمارك ؟

كرايزيس : صوت مزمارى ؟

الكاهن : أجل .

كرايزيس : ماذا يعملون به ؟

الكاهن : ـ دهشا ـ ماذا يعملون به ؟!!

كرايزيس: أجل يا ابى ماذا يعملون به ؟

الكاهن : يغذون به قلوبا جياعا ، ويروون نفوسا عطاشا ، انه يا الهتى لأرواحهم غذاء سماوى، ولنفوسهم شراب زلال.

كرايزيس: لم تعد بى يا ابى رغبة الى العزف ، لقد عافت نفسى حتى انغام مزمارى .

الكاهن : ـ دهشا ـ معاذ الله ، ماذا أسمع من ربة الفن ؟!

كرايزيس: ـ محزونة ـ الصدق .

الكاهن : ـ مأخوذا ـ الصدق ؟!

كرايزيس: أبى أنصت الى .

الكاهن : جوارحى آذان صاغية .

كرايزيس: أتحبنى ؟

الكاهن : أو لا يحب الكاهن كهنوته .

كرايزيس: أتتبعنى ؟

الكاهن : أو لا يتبع العابد معبوده .

كرايزيس: أتنزل من عليائك ، وأهبط من سمائى لنعيش لحظة فى الحقيقة ؟

الكاهن : أى حقيقة ياربة الخلود ؟

كرايزيس: حقيقة الحياة وسر الوجود .

الكاهن : انت حقيقة الحياة ، وانت سر الوجود ، انت عطر الدنيا وعبير الخلود .

كرايزيس: (ساخرة) انا .. ؟!

الكاهن : أجـل .

كرايزيس: انا من ياأبى ؟

الكاهن : كرايزيس الهة الموسيقى .

كرايزيس: أننى اريد كرايزيس المراة .

الكاهن : (مأخوذا) رباه ماذا اسمع ؟!

كرايزيس: أراك غضبت يا أبى . ألم تقل انك تحبنى ؟

الـكاهن : بلى ، ولكن ..
كرايزيس : (مقاطعة) ابى اتعبق الزهرة ان ظمىء الغصن ؟!
الـكاهن : لا .
كرايزيس : ايجرى النهر ان امتنع المطر ؟
الـكاهن : مطلقـا .
كرايزيس : أتعزف القيثار ان انقطع الوتر ؟
الـكاهن : كلا .
كرايزيس : اترى الأنفاس ان نضب القلب .
الـكاهن : البتـة .
كرايزيس : فلماذا اذن حرمتم الحب ؟
الـكاهن : (ذاهلا) ماذا اسمع من كرايزيس الخالدة ؟
كرايزيس : أخالدة انا ياأبى ؟
الـكاهن : خلود مزمارك الذى يشنف آذان الزمن .
كرايزيس : وهل يبقى مزمارى ويبقى الزمن ؟
الـكاهن : ويبقى مزمارك ويبقى الزمن .
كرايزيس : وتبقى انغامى ؟
الـكاهن : ما بقيت كرايزيس الخالدة .
كرايزيس : ما بقيت كرايزيس الخالدة !!
الـكاهن : أجـل .
كرايزيس : ابى ، وهل يبقى العدم ؟

« يسمع صخب الجماهير يتعالى خارج المعبد »

الـكاهن : عشاق مزمارك يكاد الضنى يقتلهم .
كرايزيس : دع حديث العشاق ياأبى .
الـكاهن : كيف ياربة الفن ؟ أيدع الزهر أنفاسه ؟!
كرايزيس : حرام على الزهر ان يقطفه مزكوم .
الـكاهن : تعنين ازهار فنك ياالهتى ؟
كرايزيس : اعنى الحياة ياأبى .

الـكاهن : الحياة ؟!
كرايزيس: اجـل ...
الـكاهن : انها فى لحن تخلده على الدهر أنغامك .
كرايزيس: ـ ملتاعة ـ لئن شقى القلب ، فلا رجع الكون صدى انغـــامى .
الـكاهن : رباه ، ماذا اسمع ؟ رباه ماذا أرى ؟ انك تثيرين سخط رب الأرباب فى السموات العلى .
كرايزيس: ايثير رب الارباب ان يطاع القلب ؟
الـكاهن : لأنه الموت من غير أن تدرى .
كرايزيس: الموت ؟
الـكاهن : أجـل .
كرايزيس: (كالمخاطبة نفسها) أحبب به ان كان يشفى جراحاتى .
الـكاهن : وعشاقك ؟ رباه ان الأرض تميد بى ...
كرايزيس: وهل مادت الأرض بعشاقى ؟
الـكاهن : بل حملتهم اليك راجلين وركبانا .
كرايزيس: فلماذا هى تميد ان عشقت امرأة .
الـكاهن : اى امرأة تعنين ياالهتى ؟
كرايزيس: كرايزيس اعنى ياابى .
الـكاهن : (ثائرا) رباه ، ماذا اسمع وماذا أقول ؟ الهة تأثم .
كرايزيس: ما الحب ياأبى اثم ولا عار .
الـكاهن : ان اقترفته « فنانة » فهو الضلال والاثم والعار .
كرايزيس: من قال ذلك ؟
الـكاهن : رب الأرباب .
كرايزيس: انه الدنيا بما رحبت .
الـكاهن : (هائجا) نزغات طيش يوقعها على العقل شيطان .
كرايزيس: بل همسات قلب ترجعها على الشفاه قيثار .
الـكاهن : اوهام تودى بالفن والقيثار .

كرايزيس: (سابحة) انها حديث القلب .
الكاهن : (حانقا) حديث القلب غدار .
كرايزيس: يالك من ظالم يرى الغدر فى صفاء الجدول الجارى .
الكاهن : بل فى عباب ليس له من قرار .
كرايزيس: لئن كان قلبى مفرقى فالقاع مسكنى ودارى .
الكاهن : انه الفناء .
كرايزيس: أحبب به من فناء .
الكاهن : (حانقا) انه النار ، انه الجحيم استعارا ، انه التمرد على رب الأرباب .
كرايزيس: ليس بضائرى أن اكون فى العصاة .
الكاهن : (ذاهلا) اتعصين الاله ؟!
كرايزيس: لم اعصه ، ولكنه صداح يبقى الحياة .
الكاهن : (مجنونا) رباه ، ما هذه الصواعق التى تقرع اذنى ؟ الهة تطيع القلب ؟!
كرايزيس: (منفجرة) هبنى أطعت القلب فما الذى يحدث ؟
الكاهن : تثور الآلهة .
كرايزيس: فان ثارت ؟
الكاهن : حلت اللعنة .
كرايزيس: فان حلت ؟
الكاهن : روعت الفنون واندكت معابدها .
كرايزيس: (صارخة) فان حدث ؟

« تقرع فجأة أجراس المعبد قرعا رهيبا »

الكاهن : (مأخوذا) رباه ، لقد قرعت أجراس الغضب . لقد قرعت أجراس الغضب ، لقد أثرت سخط الاله ياربة الفن . رباه .. رباه .. الرحمة يازيوس .

« تقرع الأجراس »

الكاهن : الرحمة يازيوس .

كرايزيس: (خائفة) ابى ، كن عونى ، وكن سندى ، ادع لى رب الأرباب .

الـكاهن : (مبتهلا) ايه يارب الارباب ، اغفر يازيوس لربة الفن هذه النزوة الدنيوية .

« تقرع الاجراس »

الـكاهن : هذه الزلة الانسانية .

« تقرع الأجراس »

الـكاهن : أسألك يازيوس بحق عرشك القـدسى ، بحق اسمك الذى فى السـماء وظلك الذى فى الأرض ، أن تحفظ المعبد ، وتبارك الهة الفن .. انها الدنيا يارب الأرباب أملت عليها هذا الذى أثار سخطك .

« تقرع الأجراس »

الـكاهن : أثار غضبك .. ارفع يازيوس هذا السخط . ان ربة الفن قد أثم تفكيرها . قد ركبت عقلها ..

« تقرع الأجراس قرعا مدويا »

الـكاهن : (مرتعشا) رباه .. رباه ..

كرايزيس: (وجلة) التوبة يازيوس .. التوبة لمن تاب والمغفرة لمن أناب .

« تقرع الأجراس »

كرايزيس: (تتناول المزمار راكعة) .

الـكاهن : انها تخر ساجدة اليك يازيوس تسألك الصفح والمغفرة.. ان مزمارها الخالد سيرتل التوبة أنغاما والحانا .

« تعزف كرايزيس لحن التوبة »

كرايزيس: (وقد كفت الاجراس) أغفر زيوس ياأبى .. أصفح رب الأرباب ؟؟

الـكاهن : (فرحا) لقد كفت أجراس الغضب. حمدا لك يازيوس.. حمدا لك يازيوس .

كرايزيس: « تجفف دموعها » أبى .. اين عشاقى ؟
الـكاهن : حول المعبد يبتهلون من أجلك .
كرايزيس: لتفتح الشرفة . فقد هفا القلب لأحبابه .
الـكاهن : (وهو يفتح الشرفة) بل ثاب العقل الى رشده .
« على أثر افتتاح الشرفة »
« يسمع الهتاف عاليـــا »
اصوات : تحيا الهـــة الفن .
أصوات : ليحفظ زيوس معبد الفن .
أصوات : ليرع رب الأرباب كرايزيس الخالدة .
« فجأة تصمت الجماهير وتعزف »
« كرايزيس لحـــن الحـــب »
« يستمر العزف حينـا . وعلى »
« أثر الانتهـــاء تسمع همهمـــة »
« الجمـــــاهير تتـــــلاشى »
الـكاهن : أرأيت عشاقك كيف ينصرفون سكارى ؟
كرايزيس: (حالمة) ورايت كيف يحنو العاشق على معشوقه نشوان.
الـكاهن : وكيف ترجع همس الشفاه أنغام ألحانك ؟
كرايزيس: ورايت كيف يتأود الغصن وينثنى هيمانا .
الـكاهن : وكيف كان يصغى النسيم خاشعا .
كرايزيس: (ملتاعة) ورايت كيف ترف الأمانى ، وكيف تخضب القبل خدود العذارى . كم هى الحياة جميلة ياأبى .
الـكاهن : حياة فنك ياربة الفن .
كرايزيس: حياة الناس ياأبى .
الـكاهن : اجمل مافيها أنغام قيثارك .
كرايزيس: (محزونة) انغام قيثارى ؟!
الـكاهن : أجل ياربة الفن . انها للروح راح ، وللنفوس ريحان . انها للدنيا كأس ودن وحان .

كرايزيس: (سابحة) لئن واد الفن قلبي فلا كان .

الـكاهن : ماذا تقولين ؟ .

كرايزيس: آه لو تعرف .. (تبكى) .

الـكاهن : (فى حنان) أتبكين ؟

كرايزيس: من جرح يتنزى .

الـكاهن : أتتألمين !

كرايزيس: من سهم أصاب القلب قتال .

الـكاهن : أى سهم تعنين ؟؟

كرايزيس: سهم على القلوب دوار (تستمر فى البكاء) .

الـكاهن : (متضرعا) لتحرس عناية السماء قلب الهة الفن .. لتحرس عناية السماء قلب الهة الفن .. سأذهب الى الهيكل واصلى من اجلك (يبتعد) سأذهب الى الهيكل واصلى من اجلك .

كرايزيس: أبى .

الـكاهن : ساصلى من أجلك (ينصرف) .

« تنفجر باكية وتنشج نشيجا متواصــلا »

« لحظة صمت يسمع بعدها صوت قيثار »

« ينبعث من مكان ســحيق جــــدا »

كرايزيس: (مفيقة) أنه هو .. انه يقترب .. (يقترب العزف) ما أجمل هذا الصوت .. ايها المجهول الذى يقتلنى الشوق اليــه ، لكم يهفو القلب الى رؤيتك (يقترب العزف) لكأنى به عصفور يغرد على أسوار معبدى .. سأدعوه سأطل عليــه من الشرفة (تذهب الى الشرفة فترتد مأخوذة) .. رباه أبشر هذا الذى أرى ؟ لكأنى به القمر يسطع نوره فى عينى .. لكأنى به رسول الى القلوب مبعوث .. أواه ما لقلبى يهفو اليــه (يقترب العزف) . .ايها الملاك .. ايها المخلوق من عطر وشذى . .

ما لقلبى رنحته رؤياك .. اسكرته عيناك (حالمـــة)
اقترب .. اقبل .. أقبل (يقترب العزف جدا) أيها
القلب ما لدقاتك خفاقة ترى ؟ ما لاجنحتك تصفق
فى الضلوع ؟ مالك ترقص مخمورا بين جوانحى .

« موسيقى صاخبة يظهر على أثرها »

« مـــانو من الشـــرفة »

مـــانو : عفوا غانية الدنيا ومفتان الوجود .

كرايزيس: (مرتبكة) ابتعد .. ابتعد (مانو يبتعد قليلا) لا..لا..
بل اقترب .. اقترب (يعود فيقترب) أيها الزائر الذى
أهاج كامن الشوق بربك قل من انت .

مـــانو : عبد يصبو الى معبوده .

كرايزيس: (لنفسها) ترى من العابد ومن المعبود ؟ (اليه) ما اسمك؟

مـــانو : مانو به الضنى برح ، به الغرام أضر .

كرايزيس: (خائفة) ماذا تريد منى ؟ بربك قل .. قل ما الذى
دفع بك الى ؟ .

مـــانو : الحب .

كرايزيس: الحب ؟

مـــانو : اجـــل .

كرايزيس: وماذا يريد منى الحب ؟

مـــانو : برء قلب يشكو جراحاته .

كرايزيس: (ذاهلة) أيشفى القلب ؟ .

مـــانو : قبلة منك تشفيه .

كرايزيس: قبلة منى تشفيه ؟!

مـــانو : وتأسو جراحاته .

كرايزيس: (حالة) وتأسو جراحاته ؟!

مـــانو : وترد له ابتساماته .

كرايزيس: وترد له ابتساماته ؟ .

مـــانو : بل تعيد اليه دنياه .
كرايزيس: ما الدنيا ؟ .
مـــانو : قلبان يتحابان .
كرايزيس: ما الحياة ؟ .
مـــانو : زوجان يتعانقان .
كرايزيس: ما الخـلد ؟ .
مـــانو : شفتان تلتقيان .
كرايزيس: ما الفن اذن ؟ .
مـــانو : بلا قلب وهم تردده الشفاه .
كرايزيس: بلا قلب وهم تردده الشفاه ؟!
مـــانو : بل دنيا تعوزها الحياة .
كرايزيس: (مندفعة اليه) خذني الى أحضانك .

« تقرع اجراس المعبد قرعا مرعبا »

كرايزيس: (خائفة) لنهرب .
مـــانو : الى أين ؟ .
كرايزيس: (صارخة) الى الحياة .. الى الدنيا .. الى الخلد .

« تقرع الأجراس قرعا مخيفـــا »
« ويسمع صـوت الكاهن مدويا »
« وسط الرنين الذى يصم الآذان »

الـكاهن : رباه ! لقد حلت اللعنة .

« يسمع دوى تحطيم المعبد »

الـكاهن : ايتها السماء .. ايتها الســـماء .. ان المعبد يتحطم (بأعلى صوته) لقد ماتت كرايزيس .. لقـد ماتت كرايزيس .

كرايزيس: « تسمع أصوات مانو وكرايزيس من مكان بعيد »
مـــانو : ان الأجراس تدق ايذانا بتحطيم المعبد .
كرايزيس: (وهى تعانقه) بل تدق ايذانا بمولد امرأة .

غلطة العمر

كانت دارنا اذ ذاك أمام « الجرن » وكانت أجمل دار فى القرية ، فقد كان يسبق مدخلها الفسيح حديقة واسعة ، أو ـ بمعنى أصح ـ عنباية كبيرة ، تظلل واجهتها ، وتمتد الى الأمام حتى تبلغ شجيرات الليمون الخمس عشرة التى ما زلت أذكر عددها ، والتى عفـــا عليها الزمن ، وأصبح مكانها الآن ساقية كأن صوتها الأرغن الذى يوقع عليه الزمن أنشودة الاحقاب ، وكانت « البوابة » عن يمين الداخل ، وكانت بوابة كبيرة ، تقفل على حوش كبير به ـ المضـــيفة ـ وغرفة التليفون والسلاملك ، ثم ديوان حضرة العمدة ، وهذا الديوان على سعته ، ما رأيته يوما يفرغ الا ليمتلىء بالفلاحين الذين يجلسون على أرضه كالأنعام ، وفى وسطهم أبى يطل عليهم من مقعده العالى ، يلقى اليهم بتعليماته ، ويصدر اليهم أوامره ، وكأنه السلطان عبد الحميد فى شرفة يلدز ، يرى من ثنايا عباب البسفور ، مجده الذى دانت له الدنيـــا ، وسلطانه الذى خرت له الرقاب ، وعلى شمال الدار ترى ـ الخوخة ـ وهى الأخرى تقفل على باب آخر من الداخل ، اســـمه باب الحريم ، أو بلغة أهل القصور ، باب ـ الحرملك ـ ٠ وهذه الخوخة والطريق الموصل اليها ، كانا منطقة حرام ، بل كان مجرد التطلع اليهما يخلق الرعب فى نفوس أهل القرية جميعا ، كأن الموت قد نصب مقصلته فى هـــذه المنطقة التى ربضت فى ساحتها سبعة كلاب أشداء ، تحرس الدار كلها فى الليل ، وباب الحريم فى النهار ٠

ولم تكن دارنا كذلك فى الأصل ، ولكن أبى أضاف اليها هذا التجميل ، بعد أن تزوج أمى ، ذات الحسب والنسب فى القرية ، وعين عمدة ، بعد أن ناصب العمدة القديم العداء وانتصر عليه ٠ ولم يكن أبى يطمع فى شىء من هذا كله أو يفكر فيه ، ، لأنه كان لا يملك

جاها ولا مالا فى القرية ، وليست أسرته ذات حسب أو نسب فيها ، ولكنه كان أكثر أهل القرية علما ، فقد كان يحمل تجهيزية الأزهر ، وكان أيضا أكثر أهلها تمدنا، فقد كان يضع طربوشـــا فوق رأسه تمكن بفضله أن يحمل لقبا رفيعا ، اذ كان هو ـ الأفندى ـ الوحيد فى القرية • ولما ناصب العمدة القديم العداء ، آزرة جدى لأمى الذى كان أوسع أهل القرية ثراء وأكثرهم عـددا وأعزهم مالا • وأقسم ليحتضن أبى فيغنيه بماله ويعزه بجاهه ، وينصره على العمدة حتى يصبح هو العمدة • وبر جدى بما أقسم فزوجه ابنته ، حتى يشد من أزره ، وأهداه ليلة العرس عشرة أفدنة ، لتكون هى نصاب العمدة الجديد فى القرية ، وبذلك انتصر أبى ، وفرح جدى ، وأتم الله نعمته على الدارين •

أما أمى فلم تكن تفكر فى شىء من هـــذا كله ، أو تنظر اليه ، أو تشعر به ، فقد كانت مشغولة دائما بما تعتقد أنها خلقت من أجله ، وهو التفنن فى اجادة ألوان الطهى ، وحذق صنعه وتقديم صنوفه المتعددة • فهى ان استيقظت مع الضحى ، فلتغادر ذلك السرير الفخم الضخم ذا الدنتلة الملونة ، والبرقع الأحمر العريض ، وتهبط سلمه المبطن بالحرير ، لتجلس على ـ الشـلتة ـ تصنع القهوة بيديهـا ، وتتحدث الى الزائرات من أهل القرية اللواتى يعتبرنه شرفا عظيما أن يجلسن فى حضرة ـ الست الكبيرة ـ ويتحدثن اليها أو يصغين الى حديثها العذب عن مهارتها الفائقة فى شئون الطهى ، وكيف أنها ذات مرة طبخت ـ البرسيم ـ وقدمتـــه لحضرة العمـــدة على أنه ـ سبانخ ـ وكيف أن هذا اللون من الطعام ، كان من أشهى الأطعمة اليه بعد ذلك ، وكيف أن طواجن الأرز المعمر ، اذا كانت بالحمام ، فيختلف صنعها عما اذا كانت بالأرانب مثلا • وكيف أنها اشتهرت بصنع هذه الطواجن من الصغر حتى ان ـ أكابر البلد ـ كانوا يطلبون هذه الأكلة بالحاح من أبيها • وكيف أن زواجها من حضرة العمدة ، لم يكن سببه سوى ـ أكلة كعك ـ مِن صنع يديها أكلها مرة فى عيد من الأعياد •

كانت هذه هي أحاديثها طوال اليوم ، وحتى اذا أقبل الليل أيضا •
أما اذا جاء شهر ـ رمضان ـ فهي شعلة لا تخمد لها نار ، وحركة لا يستقر لها قرار • تستيقظ مع الفجر ، وتنام بعد منتصف الليل • حتى أنه كان يخيل الى من يراها أنها لا تعيش فى العام سوى هذا الشهر ، الذى تستجلب فيه كميات المسلى البلدى ، وتعد فيه أنواع الدقيق لصنع الكعك • فهذا ـ للغريبة ـ وهذا ـ للمنين ـ وهذا ـ للبسكويت ـ وهذا ـ للشريك ـ وهذا وهذا وهذا • ومع هذا فقد كان الشيء الوحيد الذى يقلقها طوال الشهر ويقض مضجعها ، ويجعل الحزن يريم على وجهها ليل نهار ، هو خوفها من أن تسبقها دار فى القرية من دور الأثرياء كدار الصــــواف مثلا ، أو دار الزعفرانى فى جودة صنع الكعك هذا العام • اذ أن هذا مجد وقف على دار العمدة بالذات • ويجب ألا يخرج منها • وما زلت أذكر جيدا ذلك الحادث المروع ، الذى كادت أمى تذهب ضحية بسببه فقد حدث أن جاء أحد الأعيان الى قريتنا فى عيد من الأعياد ، ليزور ابنته المتزوجة حديثا فى القرية • وحمل اليها ضمن ما حمل من هدايا ، بعض أنواع من الكعك الجيد الصنع فعلا ، والذى يفوق بجودته كعك دار العمدة • وسرى الخبر المشئوم فى القرية . وتناقلته الألسن ، وعلمت به أمى . وما ان تحققته حتى دهمها الحزن فانطوت على نفسها ، حتى مرضت مرضا خطيرا كاد يودى بحياتها لولا أن قيض الله لها الحاجة شلبية ، التى عرفت السر ووقفت على الحقيقة • وهى أن هذا الكعك الذى يفوق صنع أمى ليس هو من صنع دار من الدور ، ولا هو أيضا من صنع امرأة من النساء • وانما استجلب من ـ البندر ـ من حانوت أحد الخواجات • وبذلك استردت أمى أنفاسها بفضل الحاجة شــلبية مكتشفة هذا السر وصديقتها الحميمة •

والحاجة شلبية هذه علم من أعلام قريتنا يشار اليها بالبنان ، ويتحدثون عنها فى كل مكان • فهى قد عرفت فى شبابها بين أهل القرية بجمال فارط ليس من سبيل الى وصفه • حتى غدا هذا الجمال

حديث الناس فى القرية والقرى المجاورة · وغدا كل رجل من أهل القرية يأمل لو ظفر منها بنظرة تلقيها عليه وهى تسير فى الطريق ، تتهادى بقوامها الفارع وغصنها المياد ، وتتيه بجمالها الذى يذيب القلوب ، وأنوثتها الصاخبة المتفجرة ، التى كادت تحدث فتنة فى القرية كلها اذ الكل كان يتمنى أن يظفر بهذا الكنز الثمين فى داره ليسعد بدنياه فى كنف شلبية · بيد أن الله فى النهاية جعله من نصيب رجل من رجالها الأتقياء ، وهو الشيخ مروان مأذون الشرع فى القرية · اذ هو الذى تزوجها ، وهو الذى ابتنى لها دارا خاصة فى القرية وأوقف عليها السبعة أفدنة التى كان يملكها لتكون مورد الهناء لهذا الجمال الذى كان يشرق كل صباح على قلب الشيخ فيضيئه بمصباح الفتنة الباهر ، وينيره بوهج الأنوثة المتدفقة حرارة وحياء وهكذا عاش الشيخ وزوجه ترفرف عليهما السعادة بجناحين من ذهب ويلفهما الهناء بحياة كلها رغد وكلها يمن واقبال · بيد أن الله الذى أتم نعمته على هذين الزوجين ، شاءت ارادته الا أن تشغل شلبية وزوجها الشيخ بما هو أهم من هذا كله ، وما ظناه أجدى عليهما من هذا كله · فقد أصيبت شلبية بالعقم الذى أقلقها سنوات وأقلق معها زوجها الشيخ ، الذى راح يبذل النفس والنفيس فى برء هذا الجرح الذى أحدثه القدر فى نعيم حياتهما · ولم تدخر شلبية وسعا فى البحث عن الطبيب المداوى والساحر الفذ · والدواء الذى كانت تتجرعه غصصا · وكذلك أيضا كان الشيخ مروان الذى وضع الدار والسبعة أفدنة التى يملكها فى كفة ، وشفاء شلبية من جراحها فى كفة · وراح يطوف بها على كل ساحر ليكتب لها حجابا ، وكل ساحرة لتحرق لها بخورا ، وكل طبيب ليصنع لها الدواء الشافى ، ولما لم يجد فائدة وقيل له ان عفريتا من الجن قد سكن جسدها ولا يمكن اقصاؤه الا اذا حجت الى بيت الله الحرام · فقد حج بها وزار قبر الرسول وتبركا بعرفات ، لعل الله أن يحقق الرجاء ويستجيب الدعاء ويمن عليهما بذرية صالحة ترث الأرض ومن عليها · ولما لم تستجب السماء الى دعائهما ، انطوى الشيخ على نفسه ، أما الحاجة شلبية

فقد قنعت بما أفاءه الله عليها من جمال • وغالبت أمرها ، وتناست همومها ،وعادت الى وجهها تلك الاشراقة التى زايلته زمنا • وعادت فاستأنفت نشاطها في القرية • فقد كانت مشهورة أيضا بأنها تجيد صنع الكعك اجادة فائقة فطنت اليها أمي ، وخافت على نفسها منها ، لذلك تعرفت عليها وصادقتها وفضلتها على نساء القرية جميعا • حتى غدت صداقتهما مضرب الأمثال ، وحديث الناس في القرية • فأمي ان خرجت من دارها في ليلة من ليالى القمر ، تخب في ثوبها الحرير اللامع يزين جبينها المنديل المحلى بالترتر وخرج النجف ، ويحلى جيـــدها ــ الصفا ــ الذى يلتف حول العنق كأنه القمر • وتنسدل حبـاته الملتمعة كالنجوم على الصدر العريض الذى يختفى خلف الشال الحرير المربى • ومن حولها ثلة من العسس يحرسونها في الليل • كانت اذا خرجت على هذا الوضع فلتذهب الى دار الحاجة شلبية • والحاجة شلبية ان لم توجد في دارها فهى في دار العمدة ، وان باتت ليلة خارج دارها فقد قضتها في دار العمدة ، تعد مع أمي لونا شهيا من ألوان الطعام ، أو نوعا معينا من أنواع الكعك • أما اذا جاء رمضان فتنتقل الحاجة شلبية الى دارنا ولا تبارحها الا اذا جاء العيد ، وأشاد النـاس بكعك دار العمدة ، وقد كان لهذه الصداقة أثرها الكبير في حياة الاثنتين فقد حدث ما لم يكن في الحسبان ، وما لم يخطر على بال مخلوق ، حدث أن حملت أمي ، وظهرت عليها عوارض الحمل • واذا بالغيرة ــ كما قيل في ذلك الوقت ــ تلعب دورها الخطير في حياة الحاجة شلبية التى ظهرت عليها هى الأخرى عوارض الحمـــل وما ان تأكدت منـــه ، أو بمعنى أصح أكدته لها أمي ، حتى جن جنون المرأة ، وراحت تحتضن أمي وتقبلها فرحة مبتهجة • كما راح الشيخ مروان يزف البشرى للناس في القرية ، ويعلنها سعيدا فرحا ، وما هى الا عدة شهور حتى وضعت أمي غلاما ، قدر له أن يعيش حتى الآن ويروى قصته • وما هى الا عدة أسابيع خلت بعد ذلك حتى وضعت الحاجة شلبية هى الأخرى طفلة كانت قرة عين لها ولوالدها وقد شاء القدر أن تكون ــ زاهية ــ وهو اسم الطفلة ، صورة لأمها • فلم تكد تكبر وتشب عن الطوق حتى خرطها

خراط البنات ، كما يقولون فى القرية عن الفتاة التى يفرع عودها ، وتنضج أنوثتها ، وفرع حقيقة عود زاهيـــة وبرز نهداها ، وترنح خصرها تحت الثوب الفضفاض الذى يخب فيـه جسدها الفائر كما استدار وجهها وأناره جبين مشرق كأنه الهلال ، يطل من الأفق على عينين مخمورتين كأن أهدابهما الطويلة -الساجية غلائل ليل حالك السواد • يزين ذلك ثغر مستدير كأن شفاهه المخضبة ، حول الثنايا الرقيقة الملتفة جمرتان لا تخبو لهما نار •

وبدأت العيون فى القرية تتحسس هذا الجمال ، وتتشهى هذه الفتنة ، كما بدأت القلوب فى القرية تهفو الى زاهيـة ، كما كانت تهفو من قبل الى أمها وتتحدث عن جمالها فى صمت هو بعينه البيان الساحر •

أما أنا فكنت فىالحقيقة أبعد عن رؤيةهذا الذى تهفو اليه القلوب أو تتشهاه العيون ، فقد كانت زاهية معى فى الليل وفى النهار • نلعب « الطلع » ونركب النورج ، ونتريض على القناة اذا أصبحنا ، أما اذا أقبل المساء وحان وقت النوم ، فكثيرا ما كان يضمنا فراش واحد ونلتحف غطاء واحدا • وأذكر أننا فى تلك الأيام السعيدة التى اختلستها طفولتنا اختلاسا من الزمن ، لم نأكل شيئا شهيا الا معا ، ولم نقتسم قطعة من الحلوى الا معا ، سواء تقدمها لنا أمى ، أو تقسمها علينا أمها • ولم أكن أدرى والأيام تمخر بنـــا عباب هذه الطفولة الهانئة ، أننى وحدى سأدفع ثمن هذه السعادة ، وأن الأيام تضع فى طريق الناس صخورا تتحطم عليها آمالهم ، وتتناثر عليها سعادتهم فقد بدأت أرى غيوما تتجمع وتتكاثف فى الأفق ، كما بدأت أعرف أن لى كسائر الناس أذنا تسمع ، وعينا ترى • فسمعت أول ما سمعت كيف يطرون فى القرية جمال زاهية ، ويتحدثون عن فتنتها ، كما بدأت أرى بعينى رأسى هذا الجمال على حقيقته • ولم تدهشنى روعته بقدر ما أدهشنى كيف أننى لم أفطن اليه من قبل ، لذلك رحت أرقبه عن كثب ، وأتتبعه من بعيد • وكلما تلمسته بقلبى ، أو تحسسته

بعيني ، شعرت بشيء من الاغتباط لا أدرى مبعثه ، وبنوع غريب من السعادة يغمر قلبى ويفيض عليـه • وظللت كذلك حتى اقتنعت فى النهاية أن لا غنـاء لى عن زاهية فى أى لحظة من لحظات النهار أو الليل • غير أنى ما كدت أعرف ذلك وأتحققه وأتأكد منه ، حتى بدأت أحس أن زاهية أخذت تتجنب لقائى ، وتتحاشى اللعب معى أو الاقتراب منى ، كما راحت تقلل من مجيئها الى دارنا ، ولا تجىء اليها ان جاءت الا مع أمها ، وقد أكربنى ذلك وأقض مضجعى وجعلنى أفكر فيه حتى أجهدنى التفكير • وفى صبيحة أحد الأيام جاءت الى دارنا أمها كالعادة ، وما ان رأيتها حتى وجدتنى أسألها فى لهفة عن زاهية ولم لم تحضر معها كالعـادة دائما ؟ فقالت المرأة ضاحكة وهى تنظر الى عينى الذابلتين :

ـ زاهية انحجبت •

وكأنها لاحظت أننى لم أفهم فانثنت غانجة • تربت على كتفى وتقول فى صوت أنثوى رقيق :

ـ أصل البنت كبرت •

ومن لحظتها تحققت أننى حرمت حقيقة رؤية زاهية • ولكن هل سأحمتل هذا الحرمان •• ؟؟

وهل سأحرم حقيقة من زاهية ، فلا أجلس اليها ، ولا أستمع الى حديثها العذب ، ولا أتحسس بعينى ذلك الجمـال الذى يغمر قلبى بتلك السعادة الغريبة التى كانت تفيض عليه ؟؟ وهل اذا احتملته ستحتمله زاهيـــة • ؟؟ ترى هل هى الأخرى تفكر فيمـــا أفكر أنا فيه ؟؟ من يدرى •

ومرت الأيام لا أدرى كيف مرت ، لأننى قضـــيتها فى الدار لا أبرحها ، وكلما سألتنى أمى سر هذه الوحدة ، وسبب هذا الوجوم الذى يكتنفنى • تذرعت لها بأسباب كثيرا ما داخلها فى صحتها شك مريب • ومكثت كذلك الى أن حدث ذات يوم ، أن زارتنا زاهية لترى أمى التى لم ترها من زمن بعيد • ولما أمسى عليها الوقت وأرادت أن

تنصرف وخشيت الكلاب الرابضــة فى الطريق طلبت منى أمى أن أصحبها الى دارها • ولا يعلم غير الله حقيقة النور الذى غمر قلبى فى تلك اللحظة ، بسبب هذا الصنيع الذى قدمته لى أمى دون أن تدرى • ولما غادرنا الدار ، وسرت بجوارها انعقد لسانى ، وخفق قلبى وشعرت بشىء من الاضطراب يهــددنى ان أنا فهت بكلمة واحدة ، أو حولت عينى عن موضع قدمى التى كنت أنتزعها انتزاعا من الأرض • وكانت هى كذلك تخطر بجانبى على مهل ، وتسير متعثرة فى ثوبها الطويل ، لا تسمع لها صوتا اللهم الا رنة ـ خلخالها ـ التى كانت تحدث فى قلبى دويا كأنه أجراس المعــابد فى ليلة عيد • ومكثنا كذلك حتى توسطنا طريق ـ العنباية ـ وظللتنا أوراقها التى راحت تتساقط علينا من بينها أضواء القمر ، وتنطبع بيضاء على رؤوسنا وثيابنا وكأنها الأحجبة تحفظ صمتنا فى الليل ، وتبارك حبنا هذا الوليد • وفجأة هب علينا من بعيد كلب كبير كأنه فى الليل الوحش المفترس • فخافت زاهية وارتعدت فرائصها ولم تجد غير صدرى فلاذت به ، وتعلقت بعنقى ، وما ان اقترب الكلب منا وتلاشت فى أحضانى ، حتى شعرت فجأة بنار لا قبل لجسدى باحتمالها ، يصبها عليه صدر عريض ناهد ، وثدى غرير نزق ، كأنه فى انطبــاعاته جذوة نار حاميـــة • كما شعرت بأنفاسها الدافئـــة تغمر وجهى بلفحاتها ، فاضطربت فرائصى ، ودارت بى الأرض فأغمضت عينى ذاهلا عن كل شىء ، الا أذى تلك النار التى تعتمل فى جسدى ، وسحر ذلك النور الذى يجنبنا فى تلك اللحظات عوادى الاحتراق ••• ومكثت كذلك لحظات كنت أسأل نفسى فيها • هل هذا هو الحب ؟؟ هل هذه هى ناره التى يتحدثون عنها ؟؟ وهل كذلك وفجأة يقدر لى أنا ابن الرابعة عشرة ، أن أذوق الحب ، وأذوق معه وفى نفس اللحظـــة ناره هذه الحامية •• ؟

ودانانا الكلب • وما ان عرفنى حتى سكنت ثورته ، والتى ما كنت أود لها ذلك • وراح يبصبص لنا بذنبه فاطمأنت زاهية وابتعدت

عني خجلى متوردة الخد وهمت بأن تستأنف السير ، ولكنها وجدتني ما زلت في مكاني متسمرا كأنني تمثال من الحجر ، فعادت واقتربت مني ثانية وجذبتني من ثوبي وهي تقول بصوت رقيق خفيف كأنه الهمس :

ــ انت خايف ؟

وكان هذا فاتحة حديثنا ، فأجبت بصوت عيي متلعثم :

ــ لا أبدا .

قلت ذلك وسرت بجوارها يخيم علينا الصمت من جديد . بيد أننا لما اقتربنا من الدار وشعرت بأن نهاية سعادتي قد اقتربت ، وأخافني ذلك ، تشجعت واقتربت منها وقلت في صوت حزين تشوبه لوعة قاسية :

ــ هل سأراك ثانية ؟

فزمت على شفتيها ولم تجب ، ولما عاودت السؤال ، قالت وهي تتفحص بعينيها الجميلتين أطراف شـــالها الحريري الذى تغطي به رأسها :

ــ مش بايدي .

فصمت مفجوعا لانني فهمت كل شيء ، وبعد حين قلت وأنا أنظر الى عينيها وكأنني أنظر الى سيف مسلط على عنقي :

ــ والى متى سيكون هذا السجن ؟

فنكست أهدابها ومال الراس الجميل بالعنق قليلا ، ثم قالت وهي تعصر أطراف الشال عصرا بين أناملها :

ــ الى أن أتزوج .

وكأن هــذا اللفظ طعنة أصابت قلبي ، لأنني شعرت بالأرض تدور بي ، وبالصمت الموحش الذى هو أشد هولا من الصراخ العنيف يكتنفني ويطبق على أنفاسي ، فلم أطرف ولم أنبس حتى بلغنا الدار فمدت لي يدها لتصافحني أو لتشكرني فمددت لهـــا يدا مضطربة الانامل حزينةالأحاسيس ، ودون أن أشعرانكببت على يدها وقبلتها ، ولكنها سحبت يدها سريعا وهي تقول مأخوذة تنظر الى :

ـ الله انت بتعيط يا محمد ؟

ثم فتح البـــاب وارتد ثانيـــة ، وفجأة ألفيتنى وحدى أسير فى الطريق ، وفى تلك الليلة ، ولأول مرة فى حياتى عرفت كيف تكون جفوة الفراش للذين يبيتون الليـــل يهتفون بالغمض • وفى الصباح وجدتنى أعيش وحيدا فى دنياى ، أبكى محزونا اذا ما خلوت بنفسى ، وأضحك باكيا اذا التقيت بالناس • حتى غدوت من فرط ما ألم بى من حزن أعيش فى دنيا بلا غاية أو أمل • حتى ساء حالى وانهار كيانى وأصبحت شخصا جـديدا غير الذى كنته بالامس • وقد أقلق هذا أمى وأقض مضجعها فراحت تبث العيون حولى وتطلق الآذان تسترق أخبارى ، لتعرف سرى وتقف على موطن دائى • حتى عرفت أننى أحب زاهية ، وأننى أريد أن أتزوجها ، وما ان عرفت ذلك حتى تهللت أساريرها وأقبلت على سعيدة راضية تزف الى فى حنان الأم وعطفها على وليدها بشرى تحقيق هذه الآمال التى كانت هى نفسها تود لها أن تتحقق • ولكى تجعلها حقيقة واقعة ليطمئن قلبى ، لم تنتظر أبى حتى يعود من سفره الطويل • اذ كان قد سافر مع من ســـافر من شيوخ القرية لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول • بل أعلنت خطوبتى لزاهية وتحدثت فى الأمر مع ابويها ورحبا بها • وراح الشيخ مروان يعلنهـا فرحا سعيدا على رؤوس الاشهاد ولا تسأل عن الفرحة التى غمرت قلبى وفاضت عليه وردت الى حياتى من جديد • اذ رحت أستأنف حياتى السابقة ، وأسير مبتهجا فى شوارع القرية ، وأبحث عن أصدقائى فيها لنستأنف ثانية حياة الضحك واللهو والمرح • بيد أن هذا الهناء واأسفاه لم يعمر طويلا ، ولم تكتب له الحياة الا ريثما أتذوق حلاوته ، لكى أستشعر فيما بعد مراراته • فقد حدث أن عاد أبى من سفره الطويل وعلم بالخبر فاستنكره وراح يعارضه بشدة ، بعد أن ثار على أمى وعنفها فى قسوة لأنها تصرفت فى شأن من أخص شئونه هو • اذ أن ابنة الشيخ مروان ، ليست هى التى يتزوجها ابن العمدة ، الذى يتحتم

أن يتزوج من أعرق البيوتات وأعزها مالا وأكثرها جاها وسلطانا ،
ولذلك أصر على فسخ هـــذه الخطوبة مهما كانت النتـــائج وترتبت
الأسباب • وغضبت أمي لهذه الثورة واعتبرتها اهانة الى شخصها •
لأنه اذا كان هذا الزواج من شأن أبى كما يقول فمن شأن أمي أيضا
أن تختار زوجة ابنها ، لأنها هي التى ستعيش معها في دار واحدة ،
وهي التى ستعنى بشؤونها • وقد اختارت أمي زاهية ، ولن تختار
فتاة سواها ، وأصرت على ذلك وأعلنتهصراحة ، وعرف هذا فى القرية
وانتشر بسرعة البرق وراح أهل الخير يعملون على تقريب وجهة النظر
ولكن أبى لم يأبه لشيء من هذا ، بل أصر على رأيه في غضب أخرجه
عن طوره ــ وهو الرجل الذى عرف بالرزانة والتبصر في الأمور ــ
فوضع طلاق أمي فى كفة ، وزواجي من ابنة الشيخ مروان في كفة
أخرى • وبذلك تعقدت الأمور ، وتلاحقت الأحداث سراعا • حتى لكأن
هذه الأحداث كانت مستترة خلف باب من الأبواب تنتظر الوقت
المناسب الذى تبيـــد فيه الحرث والنسل وتأتى على هنـــاء الناس
وسعادتهم • وكان الوقت المناسب هو هذه اليمين التى أقسمها أبى
والتى أغضبت أمي وأغضبتنى أنا أيضا • وجعلتنا ننتقل الى دار خالى
الشيخ منصور • الذى ناصرنا وشد من أزرنا وأعلنها حربا على أبى
بعد أن انضم اليه فريق كبير من أهل القرية ، في مقدمته الشيخ
مروان . الذى اعتبر رفض هذا الزواج امتهانا له وتحقيرا لشأنه .
وبهذا ازدادت الأمور تعقيدا ، وضاعف من خطورتها أن ذهب خالى
فى وفد من أهل القرية وعلى رأسه أمي ، الى بيت الشيخ مروان ،
وأعلن زواج ابن أخته من ابنته رسميا • وما أن علم أبى حتى رد على
هذه الاهانة ردا قاسيا ، هو طلاق أمي الذى أعلنه في صورة قاسية
على رؤوس الاشـــهاد فى القرية • وكذلك قضى الأمر واندلعت نار
الفتنة فى الدارين • وظهرت نوايا خالى على حقيقتها وهى أنه يطمع
فى ــ العمدية ــ لأنه كما يعتقد أحق بها من غيره ، ولذلك فهو سوف
ينتزعها من أبى انتزاعا ، وانضم اليه فى هذا الرأى فريق كبير جدا ،

ومن بينه أمي التي مكنته من بعض المستندات الهامة التي تضر بأبي حقيقة • وقد أقسمت لتجعلن يوم سقوط العمـدة القديم ، ونجاح العمدة الجديد ، هو يوم « زفاف محمد علي زاهية » ليكون في القرية اليوم الذي تتحدث به الركبان • وراح أبي من جانبه يرد على كل هذه المكايد ، ويعمل جاهدا على احباط هذه الفتنة ، ولكنه لم يجد له معينا في القرية ، بعد أن كان الكل له أعوانا • فقد مات جدي لأمي الذي كان يستمد منه العون والقوة • والذي كان سنده في الملمات • وانفض من حوله أقرب الناس اليه • وذهبوا الى خالي القوي بماله وسلطانه ، أو بمعنى أصح الى العمدة الجديد المنتظر وبذلك تحققت هزيمته ولا سيما بعـــد أن أصيب بالفـــالج الذي أقعده في الفراش ، وبذلك استطاع خالي ، وبفضل المستندات التي أعطتها له أمي أن ينتزع من أبي العشرة أفدنة التي كان يملكها أو ملكها له جدي ، وكانت نصاب العمدية في القرية • وهكذا بين عشية وضحاها بدل الله الدنيا من حال الى حال • فبعد أن كان أبي في القرية هو رجلها المهيب الذي تخر له الجباه • أصبح هو الشريد الطريد ، الذي يقطن دارا متداعية في القرية ، وينام وحده في غرفة مظلمة ، يشكو الداء الذي ينخر في عظامه ، وحسرة الهزيمة التي تقض مضجعه ، وليس في القرية على رحابتها وسعتها من يسأل عنه أو يعنى به ، اللهم الا عم « برعي » خادمنا القديم ، الذي بقي بجواره في محنته ، كما كان بجواره أيام جاهه وسطوته ، والغريب أنني كنت أنظر من بعيد الى ذلك كله فأشفق على أبي وأتحسر على ما أصابه من أجلي • ثم أعود فأذكر حبي لزاهية ، وسعادتي المنتظرة بالزواج منها ، فأغمض عيني عن كل شيء ، سوى استعجال الزمن واستباق العمر لكي ينقضي الشهر الباقي على انعقاد جلسة الشياخات في المديرية التي ستقرر تعيين العمدة الجديد ، والذي سيكون خالي بلا شك ، اذ أن سعادتي وهنائي وقفا على هذا اليوم كما قالت أمي وأقسمت ، وراحت تعد العدة له ، وما زلت أذكر وكأنني أرى الآن بعيني ذلك اليوم المشهود ،

الذى ذهب فيه كل من فى القرية الى ديوان المديرية لانتخاب خالى عمدة للقرية • فى حين بقيت فيها النسوة وبعض الشبان يعدون العدة لليلة العمر فى القرية التى سأزف فيهـــا الى زاهية • ومما أذكره أيضا جيدا أن جرس التليفون ما كاد يدوى رنينه فى القرية عند الظهر ، ويعلن النبأ السعيد بتعيين العمدة الجديد ، حتى انطلقت البنادق مدوية فى سماء القرية ، وقابلتها الزغاريد معلنة ليلة الزفاف السعيد • وما ان أقبل المســـاء وجاء العمدة الجديد تتقدمه وفود المهنئين ، حتى دوت البنادق مرة أخرى ، وتعالت الزغاريد ، ونحرت الذبائح ، وراحت المشاعل والكلوبات تتلألأ نورا فى شوارع القرية وأزقتها ، كما راحت (مزيكة) الحكومة التى استأجرها خالى فى تلك الليلة بعشرة جنيهات ، تشنف الآذان أمام دار العمدة كما راح ــ الطبل البلدى ــ تتعالى دقاته أمام دار الشيخ مروان ، أو بمعنى آخر ــ دار العروسة ــ التى أناخ أمامها الجمل يحمل على ظهره ــ التختروان ــ الكبير الذى ستنقل فيه العروس بعد صلاة العشاء الى دارنا •

وكنت أنا أرى من بعيد بعينى رأسى كل هذا الذى تزدان به القرية من أجلى ، فتزداد فرحتى ويتضاعف هنائى ، وأكاد من فرط ما يحمل القلب من سعادة ، أحلق فى السماء كشعاع من نور ولما أتى الليل ، وعلمت بأن ــ الشادر ــ الكبير الذى أقامه خالى عند الجرن ، وزوده بالأضواء المتلألئة والمقاعد الوثيرة والثريات والبنود المختلفة ألوانها • لتغنى فيه المغنيات وترقص الراقصات • قد اكتظ بالناس على سعته ، ذهبت الى هناك لأسعد بهذه الرؤية ، قبل أن أشغل بمراسيم الزفاف ، وأحبس مع زاهية فى الغرفة التى أعدت لنا • وبينما أنا أنظر مبتهجا الى أضواء المشاعل التى زين بها مدخل الشادر وزخمت الناس فيه ، اذ بى أرى أمامى فجأة عم برعى بلحيته الطويلة المغبرة ، وسحنته التى طمستها الايام • وظهره المعوج الذى قوسته الأعوام الثقيلة التى مرت عليه • ورأيته يمد لى يده المرتعشة الهزيلة ويصافحنى فى حرارة ، ثم ينتحى بى جانبا ويسر فى أذنى بصوت

مضطرب حزين أن أبي قد ساءت حالته بعد العصر وهو الآن في حالة النزع الأخير ، ويريد أن يراني قبل أن يموت ، ثم تحسس الرجل عينيه وأزاح عنهما بعض الدموع وقال وهو ينصرف محزونا يتوكأ على عصاه :

ـ سأنتظرك يا بني عند باب الدار ، حتى لا يراني أحد معك فيحول دون أعز أمنية للرجل قبل أن يموت ·

وشعرت فجأة بعد أن انصرف عم برعي بشيء يشبه الحمى يسري في جسدي ، وينساب في كياني ، فوقفت مضطربا أفكر تفكيرا مرا ، وأحس أحاسيس غريبة كلها عطف وحنان ، تدفعني دفعا الى رؤية أبي بعد أن حرمت من رؤيتـه زمنـا طويلا ، وحـذرتني أمي من لقائه أو السؤال عنه ، وانهلت الدموع من عيني ، ورحت أبكي في الطريق بكاء مرا وأنا أسـير في الليل وأنتزع قدمي انتزاعا من الأرض ، وأتجنب كل من يلقاني لكي لا يراني أحد كما قال لي عم برعي ·

حتى بلغت تلك الدار التي قطنها أبي بعد محنتـه ، وبعد أن انتزعت منه داره الأولى مع العشرة أفدنة التي كان يملكها · ووجدت عم برعي ينتظرني على بابهـا · وما ان رآني الرجل حتى انفرجت أساريره وأشرق وجهه ، كأنه كان غير مصدق مجيئي · وقادني الى دهليز صغير ينيره مصباح خافت ، ثم الى غرفة رطبة موحشة أضفى عليها مصباحها الزجاجي الشاحب صفرة واكتئابا · ورأيت أبي مسجى على سرير من الحـديد الصدىء المتآكل · وطالعني من بعيد وجهه المتقع المصفر ، الذي يتفصد عرقا باردا انساب على لحيته الكثة المغبرة حتى غمر العنق المترهل الذي مال بالرأس على وسادة مغبرة متآكلة من غير غطاء · فوقفت في مكاني مرتاعا من هول هذه الصورة ، وكدت أصرخ لولا أن زممت على شفتي حتى لا أقلق هذا الشبح المسجى امامي ، وكأنه احس بي واشفق علي ، ففتح عينيه الغائرتين ونظر الي، ثم عاد فأغمضهما ثانية ، ولكن بعد أن اشار لي بيده الملقاة بجانبه ، كأنها قطعة عظم من جثة متآكلة · أن أقترب

منه ، فاقتربت منه وجلا ترتعد فرائصي ودانيته جاحظ العين متدهور الأنفاس ولما أحس بى ، جاهد نفسه جهادا مريرا حتى رفع يده المرتعشة المعروقة التى تتصبب هى الأخرى عرقا باردا كأنه الثلج ، وراح يتحسس بها رأسى المضطرب ، ويمسح بها على وجهى المرتعش المقرور • وهو يذرف من بين شفتيه المترهلتين بعض الكلمات • كما تذرف العين المقرحة من بين المآقى بعض الدموع • بيد أنه لم يطل لأن رأسه ثقل فجأة ، ومال بالعنق المترهل على الوسادة ، وهو يغمض عينيه ويلفظ آخر أنفاسه •

شيء واحد فى تلك اللحظات الهائلة ، هو الذى أنسانى كل شيء حتى جلال الموت وقداسة الأبوة • تلك هى الكلمات التى أسرها الى وهو يموت ، والتى انصبت حروفها فى أذنى حامية كالنار تحرق جسدى وتفرى عظامى وتنذرنى بالحقيقة المروعة وهى أننى ان تزوجت زاهية ، فانما أتزوج شقيقة لى . جاءت الى هذه الدنيا اثر غلطة ارتكبها أبى فى عمره . وما كان يدرى بأنها ستكون غلطة العمر . .

~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~

محتويات الكتاب

صفحة

الكتاب الفضى

سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

صدر منها :

البحث عن جسد	: للاستاذ يوسف السباعى
قلوب خالية	: للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى
العش الهادىء	: للأستاذ توفيق الحكيم
امرأة بلا مقابل	: للأستاذ اسماعيل الحبروك
ام العروسة	: للأستاذ عبد الحميد جوده السحار
المعذبون فى الأرض	: للدكتور طه حسين
الهدف الكبير	: للسيدة أمينة السعيد
ارض الخطايا	: للأستاذ أمين يوسف غراب

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩٥٨

حديث الشهر

أنت نصف العمل

عزيزي القارىء

هل تدرك يا أخي انك جزء من العمل الفني ؟ .

هل تدرك انك نصف متمم لنصف آخر .. ؟

هل تدرك انك تمثل في العمل الفني الجـزء المستقبل .. الذى لا قيمة للجزء المرسل بدونه .. ولا كيان له من غيره .. ؟

هذا الكتاب الذى تمسك به بين يديك .. هل يمكن أن تكون له قيمة .. ككتاب .. اذا لم توجد انت ؟ انت اذن نصـف العمـل الفنى .. ومن احسـاسك .. وذوقك .. وتفكيرك .. تنعكس قيمة العمل الفنى .. وتظهر حقيقته ..

وعندما يرسل الفنان انتـاجه .. يظل عمله طاقة مبددة في الهواء .. لا كيان له .. حتى تلتقطه نفوس القراء .. أو المشاهدين .. او المستمعين .. وتنفعل به .. فيصبح العمل الفنى شيئا موجودا .. له معالم .. وله تفاصيل .. وكيان محسوس ..

والعمل الفنى الذى تعجز عن التقاطه النفوس .. لا يمكن ان تكون له قيمة في حد ذاته .. ولا يمكن ان نعتبره شيئا كاملا .. الا اذا وجد من يستقبله .. ويردده .. وينفعل به .

والذى لا يجد لعمله الفنى .. مستقبلا أو ملتقطا .. لا يجب أن يلوم جمهوره .. لانه عجز عن التقاطه .. وجهد عن استقباله .. بل يجب ان يلوم نفسه .. لانه لم يفلح في التجاوب معه .

فالاصل في العمل الفنى .. ان يرسل لمستقبل .. لا ليبدد في الهواء .. وليس كل عمل فنى .. يمكن ان يلتقط في كل النفوس .. فالحساسية تختلف . . والمقاييس تتفاوت . .

وعندما يعجز المستقبل عن التقاط عمل فنى .. فليس معنى ذلك ان العمل فاشل .. لان ما لم يلتقطه هو .. قد يلتقطه غيره ..

وليس هناك في العمل الفنى ادنى .. ولا أسمى .. لأن الذى يحدد العمل .. ليس قيمته الذاتية .. وانما مدى انفعال ملتقطه به ..

وقد يخرج العمل الفنى في جيل .. فلا يجد من يلتقطه الا بعد اجيال .. فيقولون عن صاحبه : لقد سبق به زمنه .

لاجل هذا يا أخى القارىء . . لا تصدر ابدا احكاما قاطعة على ما تلتقطه .. ولا تصف عملا فنيا .. بأنه فاشل .. لانك تكون جزءا من هذا العمـل .. وقد تكون انت الجزء الفاشـل فيه .. لانك لم تستطع التقاطه ..

كل ما عليك عندما لا يعجبك عمل فنى .. ان تدعه .. لانه لاتجاوب بينك وبين مرسله .. الذى قد يكون هناك تجاوب بينه وبين سواك ..

يوسف السباعي

الكتاب القادم

اللحظة الحرجة

تأليف يوسف ادريس

- لا جريمة هناك ، لقد نفذت الاوامر وقتلت عدوا
- بل هناك جريمة ، لقد خالفت الاوامر وقتلت أبا
- هذا عدو
- هذا أب
- أب من
- أب شيرلى
- شيرلى من
- شيرلى ابنتى
- تبا لك ، هل قتلت نفسك اذن
- اجل يا سيدى . هذا بالضبط ما حدث . لقد قتلت نفسى



سلسلة شهرية تصدر عن نادى القصة





١٠ قروش